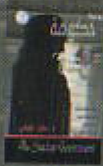

رواية
حكومة
الظل
لا بد من كسر قشرة البيضة
لابد من معرفة من وراء تلك الشخوص والأحداث
انها رواية مستفزة وغير تقليدية
مزيج من الخيال والواقع
للقارىء مطلق الحرية
في تبيان الواقع
من بين سطور الخيال
د. منذر القباني
The Shadow Government



تنتمي هذه الرواية للكتابات الحديثة ، التي تحاول
الخوض في المناطق غير المأهولة . وهي استجابة لأثر
معين ، في الثقافة السياسية ، قد تجسد أملاً بإحياء دور
الفنون ، ضمن مفهوم الفقه الحضاري .
إن الأدب للحياة ، وبإمكان العالم الإسلامي الثالث أن
ينهض من هذا الجانب . فحماية الجيل شبه المؤلم
واستقامة الطريقة والسريرة مقدمة آلية للشراكة
المتكافئة ، مع أي أحد .. وليس يوجد أبلغ في أولويات
المزاج وتغيراته ، من بلاغة القلم وجمال التعبير .
وانتشار الوجودية بأوسكار أكثر من مجرد دليل .
لقد اختار كاتبنا الطبيب ، النقش على جدار المعرفة
بأسلوبه الخاص ، دون اعتداد بنمطية الكلاسيكية
القصصية ، أو ادعاء باحتكار الحقيقة والوجهة . بل
التحرر من سيطرة السائد ، وقراءة الحدث بالتاريخ
والبحث بالتفاصيل ، وتركيب الأجنحة لفكرته ولو
بالحلم !
إنها رواية شوك ناعم ، تستفز بالقارئ عوامل التفكير
رضىً أو رفضاً . وبانتظار مراجعات الراصد والناقد .

عبد الله زنجير
مدير أعضاء مركز الراية

أكثر من تشويق

1

كانت الطائرة قد بدأ استعدادها للهبوط إلى مطار محمد الخامس الدولي بالدار البيضاء. نظر نعيم الوزان من نافذة الطائرة ليرى أنوار المدينة تكاد تظهر في هذه الليلة الغائمة سماؤها.

- " سيد نعيم الرجاء ربط حزامك فالطائرة على وشك الهبوط." قالت المضيفة و على وجهها ابتسامة خجل من أن يكون طلبها قد ضايق السيد نعيم.

ربط نعيم الوزان حزامه و هو يرد الابتسامة بمثلها.

- " المعذرة لقد نسيت."

كان نعيم الوزان يفكر في تفاصيل رحلته إلى المغرب فالرحلة ليست فقط من أجل العمل ولكن هناك الجانب الشخصي الخاص بصديقه و معلمه الدكتور عبد القادر بنوزّاني الذي لم يره منذ ثلاثة أعوام عندما غادر الدكتور عبد القادر السعودية بعد خمس عشرة سنة من تدريس مادة التاريخ المعاصر بجامعة الملك سعود بالرياض . كان تعارفهما عن طريق قاعة المحاضرات وشغف

طالب العلوم الإدارية المتفوق بمادة التاريخ. فبالرغم من كون التاريخ مادة غير إلزامية لنعيم إلا أنه قد سجلها كمادة حرة مع أشد أستاذ في القسم.

"التاريخ هو مفتاح فهم الحاضر و قراءة المستقبل"

كان دائما ما يقول لرفقائه المستغربين من فعلته الفدائية مخاطرًا بمعدله التراكمي نتيجة صعوبة الحصول على درجة عالية مع الدكتور عبد القادر المشهور بمعياره العالي الذي يقيس به طلابه.

" أنا أريد من الطالب أن يظهر اهتمامًا، و رغبة في البحث عن الجواب ، أنتم تريدون أجوبة جاهزة و الحياة ليست هكذا." كان دوما ما يقول لطلابه وهم يلومونه على صعوبة الحصول على درجات في مادته.

"اهتمام و رغبة في البحث عن الجواب" ولكن أي جواب عن أي سؤال؟ **فالأسئلة كثيرة والأجوبة قليلة!**

" **التاريخ ! إن فهمت الماضي فسيرشدك إلى حل ألغاز الحاضر و استشعار المستقبل**" كان دائمًا يردد الدكتور عبد القادر هذه العبارة لنعيم كلما التقيا في مكتبه بالجامعة بعد المحاضرة.

كان نعيم قد وجد في شخص الدكتور عبد القادر أكثر

من أستاذ. كان مرشدًا ، شعلة تضيء له في غياهب أحداث الحاضر و الماضي. و لا شك أن أستاذ مادة التاريخ قد وجد في شغف نعيم على المعرفة بكافة أشكالها، التربة التي يحلم بها أي معلم في تلميذ.

" مزجك بين المعارف الأدبية و العلمية سيجعل منك رجل أعمال ناجحًا" كان دومًا يقول لنعيم. و ها هو بعد ثلاثة أعوام منذ أن غادر د. عبد القادر بنوزّاني مدينة الرياض ليتبوأ منصب نائب مدير جامعة محمد الخامس بالرباط العاصمة الهادئة للمغرب، يأتي نعيم إلى مدينة أستاذه لينهي محادثات إنشاء التجمع العربي التركي للاتصالات الذي يسعى لتقديم عرضًا للترخيص الثالث للجوال بالسعودية.

" ثلاثة أيام، مدة كافية لكي أستكمل محادثاتي مع الشريك المغربي، ولكن الليلة سهرة ثقافية مع الدكتور عبد القادر" كان يفكر نعيم الوزان أثناء هبوط الطائرة. " ساعة واحدة هي مسافة الطريق من مطار الدار البيضاء إلى منزل الدكتور عبد القادر بالرباط."

نعم ساعة واحدة بين المطار و المنزل، ولكن دقائق معدودة فقط هي التي كانت تفصل بين نعيم الوزان و بداية رحلة اكتشاف تغوص في بحر من الغموض تقود إلى ألغاز من غياهب التاريخ!.

☆ ★ ☆

2

في هذه الأثناء كان طلعت أحمد نجاتي جالسًا في ردهة استقبال فندق الدلتا بمدينة تورنتو الكندية ينتظر قدوم موشي جولد. الفندق كان معبأ بالصحفيين الذين قدموا إلى تورنتو مثل طلعت نجاتي ليغطوا اجتماع الدول الصناعية الثمانية. كانت النقاشات كما المعتاد " السلام العالمي و تأثيره على اقتصاد العالم، ديون الدول الفقيرة، التجارة البينية بين الدول الثمانية .... موضوعات معلنة للاستهلاك الإعلامي" كان يقول طلعت لزملائه الصحفيين.

" ولكن الموضوعات الفعلية هي التي في داخل الكواليس، التي لا يطلع عليها إلا رؤساء الدول الثمانية. أسرار يجهلها باقي العالم ، قرارات تتخذ لإدارة باقي الدول، هذه الخبايا هي التي أريدها لا هذا الهراء" كان يقول دائما لنفسه كلما طلب منه رئيس تحريره تغطية الاجتماعات كل عام منذ أن التحق بجريدة الأحداث قبل خمس سنوات.

نظر طلعت إلى ساعته ثم احتسى من كوب القهوة وهو ينتظر الثلاث دقائق الباقية على قدوم موشي جولد، فقد تواعدا عبر رسالة مسجلة تركت على هاتف غرفته في الفندق على أن يتناولا وجبة الغداء سويا. " طلعت.. قابلني في اللوبي غدا الثانية بعد الظهر، سنتناول الغداء سويا" لم يجعل موشي مجالا للاعتذار " يبدو أن المسألة مستعجلة، ولكن يا ترى ما هي هذه المسألة"؟ أخذ يفكر طلعت عندما استمع إلى الرسالة ليلة البارحة. لم تكن عادة موشي ترك رسائل على هذا الشكل فشخصيته هادئة و متأنية تحتسب كل خطوة تخطوها.

في تمام الساعة الثانية بعد الظهر أقبل رجل أربعيني، متوسط القامة، نحيل الجسم يخطو خطوات ثابتة في اتجاه طلعت.

-" دقيقًا في مواعيدك كالعادة أنت يا موشي" قال طلعت مبتسما و هو يصافح الرجل:

-" على خلافكم أنتم معشر العرب.. فكَرت أن أؤخر عقارب ساعتي نصف ساعة ولكني تذكرت أنك غربي في مواعيدك" قال موشي و هو يغمز مداعبا طلعت.

لم يمهل موشي صديقه المصري وقتًا للاستفسار عن لهفته للقاء اليوم، حيث أخذه مباشرة نحو سيارته الواقفة أمام مدخل

الفندق مشيرا إلى أنه قد وعد النادل بأنه سيعود في الحال حتى لا تسحب سيارته لوقوفها في مكان غير مسموح الوقوف فيه.

-" سنتناول الغداء في مكان سوف يروقك" قال موشي وهو يركب سيارته البورش الرياضية كأنه يسترضي طلعت الحائر من هذه اللهفة غير المسبوقة منه خصوصًا في خضم مؤتمر بحجم الدول الثمانية الكبار ، حيث ينشغل الصحفيون بمحاولة أخذ أحاديث صحفية من أحد كبار الشخصيات المشاركة في المؤتمر أو باستقصاء خبر جديد قد ينفرد به. "ولكن ما هذا الإصرار على الغداء الآن" أخذ يفكر طلعت وهو يتأمل موشي جولد صديقه الكندي الذي ولد في أسرة يهودية اشتهرت بالعمل الصحافي. فجده هو الذي أسس جريدة "لؤلؤة تورونتو" التي يعمل فيها هو الآن كمسؤول عن قسم التحقيقات ، والده ترأس تحرير الجريدة حتى وفاته قبل أربع سنوات.

تعرف طلعت على موشي في رام الله وهما يغطيان أحداث الإنتفاضة الفلسطينية، وكان طلعت قد استغرب تعاطف زميله الصحفي اليهودي مع الفلسطينيين وليس مع بني جلدته الإسرائيليين ولكن سرعان ما زالت الدهشة عندما شرح له موشي انتماءه لطائفة يهودية تدعى الناجورني كارتا يبلغ تعدادها نحو مائة ألف كلهم رفضوا قيام دولة يهودية خصوصًا

في أرض فلسطين لإيمانهم بأن الله قد طردهم منها ولم يعطهم حق العودة إليها. ومنذ ذلك الوقت نشأت صداقة بين طلعت و موشي.

أخذت السيارة تسير في اتجاه منطقة يوركفيل شمال وسط المدينة حيث المطاعم الفاخرة و معارض الملبوسات و الإكسسوارات الأوروبية الثمينة.

و ما إن دخلت البورش شارع يوركفيل ذا الإتجاه الواحد حتى أصبحت كأنها تسير في موكب من السيارات الثمينة.

-" لا تخف طلعت فأنت ضيفي اليوم و الحساب علي." قال موشي مبتسما. " فأنا ما زلت أحمل بعض جينات كرم أولاد عمومتي العرب."

-" و لكن ما سر لهفتك على دعوتي إلى الغداء، فأنا لا أذكر أنك فعلتها مرة واحدة منذ أن تعرفت عليك. هل نشط فجأة هذا الجين العربي؟"

لم يعلق موشي و أخذ يصف سيارته أمام مطعم ساسفراز، وبعد أن توقفت السيارة استدار نحو طلعت وقد تحولت تعابير وجهه من المرح إلى الجدية ثم قال :

-" سأخبرك بعد تناول الغداء. فما سأقوله لك يحتاج إلى كامل تركيزك!"

☆ ★ ☆

3

لم تستغرق إجراءات الوصول في مطار محمد الخامس الدولي بالدار البيضاء أكثر من ساعة ثم خرج نعيم الوزان إلى صالة الإستقبال ليجد سائق الدكتور عبدالقادر بنوزّاني في استقباله حاملا لوحة عليها اسمه ليتعرف عليه.

-"حمدا لله على السلامة سيدي" قال السائق بلطف ثم أخذ الحقيبة من نعيم ليقوده إلى السيارة.

بعد مضي نحو ساعة من الصمت داخل السيارة المتجهة إلى الرباط بدأت أنوار المدينة تظهر في الليل الدامس.

-" الدكتور عبد القادر ينتظرك على العشاء، أتود أن نذهب إلى الفندق أولا أم إليه؟" سأل السائق باستحياء.

-" بل إلى الفندق أولا رجاء حتى أضع حوائجي" رد نعيم.

-" معذرة سيدي ولكن يبدو أن الدكتور عبد القادر مشتاق للقائك فقد طلب مني أن أظل معك حتى أوصلك إلى الفيلا" أضاف السائق بابتسامة على وجهه.

-" وأنا أيضا مشتاق لرؤيته و التحدث معه. فقد مرت ثلاث سنوات منذ أن تقابلنا آخر مرة بالرياض قبيل مغادرته."

قال نعيم . و بالرغم من أنهما كانا على اتصال دائم عن طريق الهاتف و البريد الإلكتروني إلا أنه لم يكن ذلك ليعوض عن اللقاء وجهًا لوجه.

لم يستغرق نعيم وقتًا طويلاً في غرفته في فندق الهلتون، حيث غير ملابسه ثم عاد إلى السيارة التي أخذته إلى فيلا في حي السويسي الراقي. وما إن استقرت السيارة في الردهة المخصصة للزوار داخل حديقة البيت أمام مدخل الضيوف حتى فتح الباب الداخلي للمنزل و خرج رجلا سمينا بعض الشيء في عقده السادس مرتديا بدلة أنيقة و على وجهه نظارة مستديرة مذهبة ، يوحي مظهره و كأنه من أواخر سلالة الباشوات.

-"نعيم أخيرا قررت زيارة المغرب. نحمد الله على العولمة التي أتت بك إلى بلادنا" قال الدكتور عبد القادر و هو يعانق نعيم بلهفة الأب المحن لابنه العائد بعد غياب طويل.

إذا استطعنا أن نصنف الناس إلى مجموعات فحتمًا سنجد معضلة في تصنيف الدكتور عبد القادر. فالكثير من زملائه و معارفه يرونه جامعًا بين صفات قد تبدو متناقضة ولكنها في شخصه هو متجانسة. فهو الباحث الأكاديمي الغزير

الإنتاج وفي نفس الوقت المحب للهو وقضاء الساعات في لعب الجولف و ركوب الخيل، قارئ نهم لكتب الفكر و التاريخ و في نفس الوقت موسوعة في ما أنتجته استوديوهات هوليوود. يعمل في سلك أكاديمي ذي دخل محدود إلا أنه يحيى حياة ترف و غنى واضح، يحب الإختلاط مع الناس وتكوين العلاقات الإجتماعية و لكنه وحيد في حياته الشخصية دون زوجة أو ولد بل و ليس له من الأصدقاء المقربين سوى القليل. كان نعيم دائما ما يعلق على هذا التباين في شخصية أستاذه بقوله مداعبا بأنه لا يوجد شخص واحد يدعى الدكتور عبد القادر بنوزاني، بل يوجد (الدكاترة) عبد القادر الذين تجمعوا في صورة رجل واحد، وكان دومًا ما يضحك الأستاذ لهذه المداعبة اللماحة.

-"العشاء جاهز" أعلن الخادم بعد مضي نصف ساعة من وصول نعيم وتسامره مع الدكتور عبد القادر واسترجاعهما ذكريات الرياض و جامعة الملك سعود.

-"شكرا جلال" قال الدكتور عبد القادر ثم التفت إلى ضيفه "لنكمل حديثنا على مائدة الطعام" ثم اقتاد نعيم إلى غرفة ذي طابع أندلسي، يعلوها قبة منقوشة بمزيج هندسي متناغم من الجبس والفسيفساء، مطلة على جانب آخر من حديقة المنزل حيث توجد بركة السباحة وحولها مجموعة من

أشجار نخيل جوز الهند مرصوفة في أحواض من النجيل و الزهور.

وضع الخادم شوربة الحريرة كطبق أول أمام كل من الدكتور عبد القادر و ضيفه.

- "ما زلت أتذكر أنك تحب الحريرة.. هاأنت ذا تشربها في موطن رأسها" قال الدكتور عبد القادر مبتسما لنعيم الذي لم يكن منتبها لما وضع على المائدة، حيث كان يتأمل الشكل الغير مألوف للقبة التي تعلو قاعة الطعام.

- "هذه أول مرة أرى فيها قبة هرمية و ليس على الشكل المألوف النصف كروي. " قال نعيم مشيرا إلى الأعلى.

- "أنت تعرفني.. دائما أحب غير المألوف.. دعني أخبرك عن آخر أعمالي" قال الدكتور عبد القادر مغيرًا للموضوع " أعكف على تأليف كتاب يتناول نشوء حزب الإتحاد و الترقي التركي و علاقته بسقوط الدولة العثمانية "

- " و لكن قد ألف في هذا الموضوع عدة كتب ..هل هناك جديد؟ " تساءل نعيم و هو يتأمل كل فترة و أخرى الشكل الهرمي لقبة قاعة الطعام.

- " لقد أمضيت الثلاثة شهور الأخيرة في تركيا حيث كنت أبحث في بعض الوثائق القديمة في متحف الدولة بهجة و

كذلك أرشيف وزارة الداخلية التركي، لاتستغرب نعيم فمنصبي الأكاديمي يتيح لي ما قد لا يتاح لغيري" قال الدكتور عبد القادر الذي بدأ ينجح في إثارة فضول نعيم نحو موضوع غير شكل القبة الغريب.

- " هل تريد أن تفهمني أنك استطعت أن تطلع على أرشيف وزارة الداخلية التركي!" قال نعيم مستعجبًا وقد ملأه الحماس راغبًا في سماع المزيد.

- " طبعا لم يسمح لي أن أطلع على كل ما في الأرشيف.. فقط ما يتعلق ببداية حكم حزب الإتحاد و الترقي في زمن السلطان عبد الحميد الثاني في أوائل القرن العشرين. أنت تعلم هذه كانت فترة غامضة و مليئة بالأحداث. "

كان نعيم يدرك تمامًا ما كان يشير إليه الدكتور عبد القادر من تلك الفترة المتوترة من تاريخ الدولة العثمانية. فقد كتب الكثيرون عن صلة حزب الإتحاد و الترقي بسقوط الدولة العثمانية و دور السلطان عبد الحميد الثاني. البعض كان يهاجم السلطان العثماني و يصفه بالاستبداد ، في حين كتب الآخرون عن محاولته إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الدولة المتهالكة.

- "ولكن نعيم... أنت لم تخبرني من قبل أن جدك كان مبعوثا عن الحجاز في مجلس المبعوثان في إستانبول" كان تساؤل

الدكتور عبد القادر مفاجئا لنعيم الذي لم يستوعب تماما هذه الجملة الأخيرة عن جده.

-" ألم تكن تعلم أن جدك خليل كان في مجلس المبعوثان؟"

-"جدي خليل كان تاجرًا " قال نعيم الذي كان ما يزال مندهشًا مما يسمع في تلك الليلة.

-" لا تستعجب، فهو لم يمكث في منصبه سوى سنة. لقد وجدت اسمه في أرشيف وزارة الداخلية هو وغيره من أعضاء مجلس المبعوثان في تلك الحقبة. لقد اندهشت مثلك تمامًا عندما قرأت اسمه. بل لقد كانت له أيضًا صورة مع باقي أفراد المجلس أخذت عام 1908 بمناسبة افتتاحه بعد انقطاع قرابة الثلاثون عاما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني. لقد كان يشبهك كثيرا."

استمر الحديث بين الدكتور عبد القادر بنوّزاني و نعيم الوزان الذي اكتشف أمرا عن جده لم يعلمه من قبل. ولكن يبدو أن قصر فترته في مجلس المبعوثان هو سبب محيها من ذاكرة تاريخ الأسرة المتداول، فهو حتما لم يسمع من أبيه أو من جدته، التي عاصرها في أواخر أيامها عندما كان صغيرا ، أي شيء بخصوص ما قد ذكر إليه الليلة عن جده خليل بخلاف أنه كان يشاركه الشبه.

كان الحديث مثيرًا جدًا خصوصًا عندما بدأ الدكتور عبد القادر يتحدث عما سيحتويه كتابه من أسرار لم تكشف من قبل، تلقي بعض الضوء عن ظروف نشأة حزب الإتحاد والترقي وسيطرته على الحكم بشكل سريع و دوره في إسقاط الخلافة العثمانية. لقد وجد نعيم في لقائه مع أستاذه ما كان يصبو إليه من حديث شيق و مثير جعله لا يلتفت كثيرًا إلى ما قد أعده طباخ الدكتور عبد القادر من مأكولات لذيذة مغربية كالبسطيلة و طاجن الدجاج مع الزيتون الأخضر. لقد تفوق جوعه الفكري على جوعه المعوي و استمر الحديث حتى ذهبا إلى صالة الجلوس ليتناولا الشاي المغربي الأخضر بالنعناع.

-" سيدي هناك رجل بالباب يريد مقابلتك" قاطع الخادم ثم مد يده ليعطي سيده ما يشبه الكرت الشخصي. نظر الدكتور عبد القادر إلى الكرت ثم هز رأسه للخادم و قال "أدخله المكتب".

-" أخشى أن أكون قد عطلتك عن بعض الأشغال" قال نعيم واقفًا مستعدًا للرحيل ليترك أستاذه مع ضيفه القادم.

-"لا..لا.. لم تنته جلستنا بعد، انتظرني دقائق و سأعود." قال الدكتور عبد القادر مشيرًا لنعيم بالجلوس ثم غادر المكان ليقابل الرجل الذي أعلن الخادم عن مجيئه.

مرت اللحظات ونعيم يسترجع ما قد قيل له عن جده و مجلس المبعوثان، و بدأ يتأمل هذه الصدفة الغريبة التي جعلت الدكتور عبد القادر يكتشف جانبًا من تاريخ أسرته كان مجهولا له. ولكن ما أثاره أكثر كلما فكر في الموضوع هو العام الذي كان فيه جده في مجلس المبوعثان في استانبول. فبالرغم من قصر مدة توليه المنصب إلا أنه كان في أحرج فترة من تاريخ الدولة العثمانية الحديث. هل ياترى شهد الأحداث التي أدت إلى عزل السلطان عبد الحميد الثاني؟ و لِمَ لم يستمر جده في منصبه سوى عاما واحدا؟ بدأت الأسئلة تتتابع على ذهن نعيم كالمطر المنهمر حتى دخل فجأة الدكتور عبد القادر المجلس ووجهه شاحب كأنه قد رأى عفريتًا في سيب مظلم.

– " أكل شيء على ما يرام؟ " تساءل نعيم وقد لاحظ التغير الذي طرأ على وجه أستاذه

– "نعم.. نعم كل شيء على ما يرام.. لقد كان ذلك" صمت قليلا كأنه كان يفكر ثم أكمل " مدير قسم التاريخ بالمعبد"

– " المعبد؟ " تساءل نعيم .

– " المركز العربي للبحوث و الدراسات "قال الدكتور عبد القادر شارحًا لنعيم اختصار كلمة "معبد" ثم استطرد " لقد أخبرني عن وفاة أحد الزملاء."

– " عظم الله أجرك في وفاة ذلك الزميل..ما هو اسمه؟"

– " لا أظنك تعرفه، على العموم ..لا أريدك أن تشاركني الأحزان في أول لقاء لنا منذ سنوات"

شعر نعيم مع هذه العبارة الأخيرة بأن الوقت قد جاء للإنصراف . فهو ما يزال يتذكر تفضيل أستاذه الاختلاء بنفسه في لحظات الضيق، فلم يكن الدكتور عبد القادر من الأشخاص الذين يفضلون مشاركة همومهم مع الآخرين مهما كانت درجة الصلة أو القرابة.

– " دكتور عبد القادر، لقد استمتعت معك حقا هذه الليلة على العشاء.. ولكن ائذن لي، علي أن أحضر بعض الأوراق قبل اجتماعي غدا "

– " شكرًا على مجيئك يا نعيم، و لا أود أن أشغلك عن أعمالك بالذات و أنت مقبل على صفقة اتصالات كبيرة. كلمني غدًا عندما تفرغ من اجتماعك فلعلنا نستكمل حديثنا على الشاي إذا كان وقتك يسمح. "

☆ ★ ☆

ظلت أحداث الليلة تراود نعيم الوزان أثناء عودته إلى الفندق محدثة ومضات من الأسئلة ما يفتأ أن يجاوب على أحدها حتى يشتعل لهيب سؤال آخر في ذهنه يلهيه عن جواب

السؤال السابق. كان نعيم يمر بأحد حالات الهيجان الفكري و بحاجة إلى كوب من قهوة.

-"هل يوجد مقهى قريب؟" سأل نعيم السائق الذي رافقه بأمر من الدكتور عبد القادر منذ لحظة وصوله في أرض المطار.

-"بالتأكيد، أترغب في مقهى عاد أم مقهى إنترنت؟" سأل السائق.

-" فليكن مقهى إنترنت، لا أعتقد أني سأنام قريبا فلعلي أراجع بريدي الإلكتروني و أنا أشرب القهوة."

لم تمض سوى دقائق معدودة حتى صفت السيارة بجانب مقهى أنيق ليس ببعيد عن الفندق، و ما أن دخل نعيم المقهى حتى جاءه السائق متسارعا ليقوده نحو أريكة تبدو مريحة.

-"سآتي لك بحاسب آلي محمول لكي تعمل عليه، هذا المقهى يستخدم شبكة لاسلكية. إنه من أفضل سلسلة مقاهي الإنترنت في الرباط"

ثوان فقط عدّت حتى أتى السائق بحاسب آلي محمول ليسلمه لنعيم المندهش من مدى حفاوة و اهتمام السائق بشخصه فبدا له كما لو أن الدكتور عبد القادر قد أوصى سائقه بأن يهتم به اهتمامًا خاصًا.

-"شكرًا جزيلاً على تعبك. لكنك تستطيع أن تتركني و سأرجع إلى الفندق مشيًا فيبدو قريبًا من هنا."

-" و لكن سيدي، لقد أمرني الدكتور عبد القادر أن أبقى معك حتى أوصلك إلى الفندق" قال السائق وقد بدا عليه القلق من أن يعصي أوامر مخدومه.

-" لقد قمت أنت و الدكتور عبد القادر بالواجب و زيادة، لكني أرغب في الإنفراد بنفسي و أن أنهي الليلة مشيًا إلى الفندق." قال نعيم للسائق مصرًا على طلبه.

-" أمرك سيدي... تصبح على خير." رد السائق ثم انصرف نحو السيارة المصفوفة خارج المقهى.

دخل نعيم على الإنترنت و بدأ يتصفح بريده الإلكتروني المعروف لدى الأخرين ثم دخل بعد ذلك على بريده الإلكتروني الخاص جدا الذي لا يعلمه أحد غيره و الذي يستخدمه للتسجيل في الساحات السياسية. لم يدخل على بريده السري لتوقعه رسالة، بل فقط من أجل استمرار تفعيله حتى لا يغلق من عدم الإستخدام.

"الباحث" كان الاسم الذي اختاره كعنوان لبريده السري. فالإنسان عند نعيم هو باحث عن شيء ما سواء كان هذا الشيء مالا أو سلطة أو غيرها من الأمور، و لكن في نهاية

الأمر هناك شيء ما يحرك شخصًا ما للقيام برحلة بحث قد تطول أو تقصر.

هناك فئة من البشر تشكل الحقيقة لديهم حافزًا للبحث. هذه الفئة لا تريد التفسيرات السطحية أو الإجابات السريعة، بل تريد الغوص في ماهية الأمور. تشكل لديهم كلمة "لماذا ؟" و "كيف ؟" أسئلة تبحث عن جواب، و في هذه الليلة كان هناك الكثير من " لماذا ؟" و الكثير من "كيف؟" طرح في ذهن نعيم في خضم ساعات قليلة مركزة.

بدأ نعيم في رحلة من التأمل سرعان ما انتهت عندما لاحظ شيئًا غريبًا ما كان ليعيره اهتمامًا لولا أنه لاحظ شيئًا شبيهًا به قبل ذلك بفترة و جيزة في بيت الدكتور عبد القادر. لاحظ رسمة مألوفة تعلو اسم المقهى الملصق على الحاسب المحمول، "الهرم الذهبي" يعلوها شكلاً هرميًا مألوفًا.

فجأة بدأت صورة واحدة تطغى على ذهن نعيم، صورة القبة الهرمية في قاعة طعام الدكتور عبد القادر.

☆ ★ ☆

4

بدأ طلعت نجاتي يشرب من فنجان القهوة و هو ينظر إلى موشي جولد بعد أن فرغا من الغداء منتظرًا أن يحدثه موشي عن ذلك الأمر الذي دعاه من أجله.

-" طلعت.. لا أدري كيف أبدأ ولكن أردت أن آخذ رأيك في مسألة حيرتني مؤخرًا. أنت لست الشخص الوحيد الذي حكيت له ما سأقصه عليك ولكني إلى الآن لم أسمع تفسيرًا منطقيًا مقنعًا." بدأ موشي في الحديث و على وجهه لمسات من الحيرة الممزوجة بعلامات استفهام.

-" لقد أثرت فضولي يا موشي، أتمنى أن يكون عندي رأيًا ذا فائدة لك، ولكن ما هو الموضوع؟"

-" منذ حوالي الشهر كنت في جولة في الشرق الأوسط بدأت في إسرائيل. أجريت وقتها حوارًا صحفيًا مع وزير خارجية إسرائيل موفاز حائيم.

-"نعم لقد قرأت الحوار، كان رائعًا." قاطع طلعت:

-" شكرًا.. لكن ليس موضوعي الحوار و لكن ما رأيته تلك

الليلة عندما دعاني موفاز حاثيم إلى منزله على العشاء."

-" ذلك أمر غريب فعلا يهودي يدعوك على العشاء" قاطع طلعت ممازحًا و لكنه سرعان ما أدرك استياء موشي من قطعه لحبل أفكاره.

-" كنت جالسًا معه في مكتبته الخاصة عندما لمحت صورة قديمة معلقة على الحائط. كانت الصورة لأربعة رجال أمام قصر يحمل طابعًا عثمانيًا. أثارت فضولي تلك الصورة فسألت موفاز حاثيم عنها فأجابني بأنها صورة جده زيفي حاثيم مع ثلاثة من أصدقائه في إستانبول أخذت لهم في أوائل القرن العشرين. شرح لي بعدها كيف أن جده كان من تجار سالونيك التي كانت تخضع وقتها تحت الحكم العثماني و أنه عاش فترة لا بأس بها في استانبول حين أخذت الصورة مع أصدقائه."

-" الدولة العثمانية كان فيها عددا لا بأس به من اليهود، بل بعضهم وصل إلى مراكز كبيرة في الحكومة." أضاف طلعت وهو غير مستغرب إلى الآن مما سمع من موشي.

-"صبرًا علي، فمازال للقصة بقية... ذهبت بعد زيارتي لإسرائيل إلى تركيا من أجل استكمال موضوع قد أعددته عن دور الحكومة التركية في عملية السلام في الشرق الأوسط. زرت أثناء وجودي في استانبول قصر الدولمة بهجة ، وقد دعاني مدير

متحف القصر الذي تربطني به صداقة إلى الاطلاع على العديد من الوثائق المخزنة غير المعروضة للعامة. إحدى هذه الوثائق كانت صورة لأحد وزراء البلاط العثماني سنة 1908 يدعى محمد جاويد باشا." قال موشي ، ثم صمت قليلا و هو ينظر إلى طلعت وقد امتلأ حماسًا لما سيعلنه بعد ثوان على صديقه.

-" طلعت... محمد جاويد باشا هو نفسه زيفي حاييم !"

☆ ★ ☆

5

عام 1908

كان العام 1908 عاما ساخنًا و مليئًا بالأحداث في عاصمة الدولة العثمانية إستانبول. فبعد صراع شديد و دام مع حركة الإتحاد و الترقي استجاب السلطان عبد الحميد الثاني لمعظم مطالبهم و على رأسها إعادة الحياة البرلمانية في البلاد التي كان قد أوقفها عبدالحميد الثاني بعد توليه الحكم منذ نحو ثلاثين عامًا لظنه أن الخطر الذي وجد الدولة تعاني منه من قبل جيرانها كروسيا و النمسا لا يجعل الوقت مناسبا لحياة برلمانية قد تعيق اتخاذ قرارات حاسمة لا تتحمل التأجيل. و ما أن تولى السلطان عبد الحميد الثاني الحكم حتى دخلت الدولة العثمانية في حروب جديدة مع روسيا و بولونيا بعد هدنة قصيرة و ذلك بخلاف القلاقل في المقاطعات الأوربية من الدولة. تلك الحروب المتتالية تركت أثرًا سيئًا على الخزانة إلى الدرجة التي جعلت الدولة غير قادرة على دفع مرتبات الجنود. فلم يكن من العجب أن يكون من أقطاب حركة الإتحاد والترقي ضباطاً من الجيش الذين تحالفوا مع بعض كبار الساسة ليكونوا حركة

أصبحت مع بدايات القرن العشرين هي الأقوى في الساحة التركية ، بحيث استطاعت في العام 1908 أن تفرض نفسها على سلطان البلاد و تعيد الحياة البرلمانية الممثلة في مجلس المبعوثان و تسيطر على أغلب مقاعده. في ظل تلك الظروف، كان وصول خليل الوزان إلى استانبول كأحد مبعوثي مقاطعة الحجاز في مجلس المبعوثان.

لم يكن اختيار خليل الوزان لكونه أحد كبار التجار في المدينة المنورة و حسب، ولكن لحب أهل المدينة الشديد له و ثقتهم به لما يمثله من كرم و أمانة و حسن تعامل ، مما شكل ضغطاً كبيرًا على خليل لكي يقبل أن يكون أحد ممثلي الحجاز لدى الباب العالي في عاصمة الدولة.

☆ ★ ☆

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي زار فيها خليل استانبول، فقد سبق له أن أتى في رحلات عمل لشراء بعض البضائع من أجل تجارته مما جعله على اطلاع لما يجري من تحولات في قلب الدولة في ظل الأحداث المشتعلة في الداخل و الخارج. ولكن قدومه هذه المرة كان له طعمًا آخرًا، فهو الآن من رجالات الدولة، شاء أم أبى . لقد أصبح أو على وشك أن يصبح جزءاً من اللعبة السياسية في دولة توصف بالرجل المريض الذي تتصارع أوربا

على إرثه. بل إن الطمع في الإرث قد وجد له مكاناً في داخل الدولة من قبل مختلف الولايات الأوربية و العربية التي لم تجد مستقبلها مع رجل مريض يحتضر. ولكن الرجل المريض كان يريد أن يسترد عافيته في الفترة الأخيرة من خلال محاولات يائسة في إصلاح البيت الداخلي من قبل السلطان عبد الحميد الثاني الذي أدرك الفقر و التخلف الذي أصاب الولايات العربية على إثر إهمال أجداده لها. أدرك أن عمق الدولة الحقيقي هو تلك الأقطار العربية التي لم تتطور منذ ثلاثة قرون في عالم يعيش تبعات الثورة الصناعية . فكان من ضمن مشاريعه التي أنجزها تشييد قطار الحجاز الذي ربط بين دمشق و المدينة المنورة.

كان خليل يتمنى أن تستمر مثل تلك المشاريع لإحياء مناطق من الدولة كانت قد أهملت، حتى يبث فيها روح التقدم و التطور لكي تستطيع أن تلحق بركاب الحضارة و تنتشل من غياهب الفقر و التخلف. كان من أهداف مجيئه إلى استانبول أن يحث من خلال موقعه في مجلس المبعوثان الباب العالي على بناء المدارس و المشافي في الحجاز. فقد و جد في السلطان عبد الحميد الثاني أملاً في تحسين الحال. ولكن كان هناك طرفاً جديداً في المعادلة قد ظهر و عليه التعامل معه ، اسمه الإتحاد و الترقي.

☆ ★ ☆

6

عام 1908

كان في استقبال خليل الوزان في ميناء استانبول مندوب من الباب العالي، أقله في عربة فاخرة تجرها أربعة خيول سوداء إلى قصر الضيافة عبر شوارع المدينة الشبيهة بأحدث مدن أوربا.

-" أهلا بك سيدي في عاصمة الدولة " قال المندوب ثم استكمل: " سنصل قصر الضيافة في خلال عشر دقائق ".

أخذ خليل الوزان يتأمل مندوب الضيافة الذي بدا بزيه الأوروبي الأنيق وشعره المصفوف إلى الخلف و كأنه مندوباً بريطانيًا وليس تركياً، كما أن خليل قد تعجب من عدم ارتدائه الطربوش التركي الشهير الذي كان يميز أغلب من رأى من رعايا الدولة العثمانية في آخر مرة قدم فيها إلى استانبول. بدا الرجل في عقده الرابع، متوسط الطول أشقر الشعر، ولكن ما لفت انتباه خليل أكثر من أي شيء آخر هي لكنته اليونانية أثناء حديثه معه عند استقباله.

-" لم تعرفني باسمك يا أخي" سأل خليل المندوب الذي كان جالساً أمامه في العربة الفاخرة و هي تسير باتجاه قصر الضيافة.

-"مصطفى السالوني في خدمتكم، سأكون مرافقكم الخاص أثناء وجود سعادتكم في استانبول"

-" السالوني" ردد خليل متأملاً الرجل ثم أكمل" أهذه نسبة إلى سالونيك؟"

تعجب الرجل من هذه الملاحظة التي أبداها المبعوث الحجازي التي نمت عن معرفة ما كان يتوقعها من عربي آت من بلاد نائية. "نعم سيدي، نسبة إلى سالونيك مسقط رأسي. هل زرتها ؟"

-" لا ولكني أعرفها عن طريق السمع. لي صديق هنا في استانبول عاش في سالونيك فترة من الزمن، كما أن الشريف غالب الذي حكم مكة منذ قرن قد نفي إليها من قبل محمد علي باشا والي مصر في ذلك الوقت."

أخذ مصطفى السالوني ينظر إلى خليل الوزان بشكل يختلف عن نظرته له في الدقائق السابقة. فبدا له أن هذا العربي القادم من صحراء الحجاز لماحاً و على درجة من المعرفة.

لم تكن نظرة بعض الأتراك و غيرهم من رعايا الولايات

العثمانية الأوروبية إلى العرب تحمل الإحترام أو التقدير، جزء منها كان عائداً إلى تفشي الجهل و الفقر في الولايات العربية مما أدى إلى انغلاق رعاياها عن مراكز القوة و النفوذ في الباب العالي حيث تدار الدولة. وقد أصبح الرداء العربي رمزاً للتأخر الحضاري بعكس الرداء الأوروبي الذي كان يقبل عليه المتعلمون و أصحاب النفوذ في الدولة خصوصاً من الأعراق التركية و غيرها من الأعراق الغير عربية. وقد ساهم هذا في النظر إلى العرب على أنهم رافضون للتمدن و مواكبة الحضارة و متغيراتها، و أنهم ما يزالون يريدون العيش في القرون الوسطى مع ذكريات أجدادهم الذين حكموا في الماضي. فأصبح الكثيرون ينظرون إلى العربي على أنه جاهل إلى أن يثبت العكس.

☆ ★ ☆

وصلت العربة إلى مقر قصر الضيافة ذي الطراز الفكتوري الممزوج ببعض اللمسات العثمانية. و قد لاحظ خليل أن معمار العاصمة قد أخذ يقترب أكثر و أكثر من معمار المدن الأوروبية، لدرجة أنه شعر عند سير العربة في بعض الأحياء الراقية أنه يسير في إحدى مدن دول أوروبا و ليس في عاصمة الخلافة.

-"أي أوامر، أينقص أفنديكم أي شيء ؟" سأل مصطفى السالوني بعد أن رافق خليل الوزان إلى جناحه الفاخر بالدور

العلوي الذي كان مخصصاً لأجنحة مبعوثي ولايات الدولة. "غداً بعد الظهر سأمركم لكي ننتقل إلى قصر الدولمة بهجة للسلام على مولانا السلطان مع باقي المبعوثين و لا تنسى أفنديكم العشاء غداً في قصر طلعت باشا." أنهى مصطفى جملته ثم انصرف بعد أن أذن له خليل الوزان الذي أراد أن يغفو قليلاً بعد رحلة طويلة.

كانت ردهات القصر تشهد حركة غير مسبوقة بسبب قدوم أعضاء مجلس "المبعوثان" و معاونيهم. وقد أتى البعض بحاشيته وخدمه لكي يظهروا لباقي ممثلي الولايات مدى ثرائهم و نعم بلدانهم عليهم ورغد الحياة التي ينعمون بها. فلم تكن لدى البعض رغبة في نقل هموم و مشاكل أبناء الولاية التي بعثوا من أجل تمثيلها لدى الباب العالي، بقدر ما كان لهم أطماع شخصية في التقرب من السلطان و حاشيته. أما غالبية أعضاء مجلس "المبعوثان" المنتسبين إلى جماعة الإتحاد و الترقي التي أصبحت حزباً سياسياً تسيطر على مجريات الأمور في الدولة بفضل قادة الجيش المؤسسين للحركة فقد كانوا على شاكلة مختلفة من الباقي، ليس فقط من حيث مظهرهم الأقرب إلى أوروبا ولكن أيضاً من حيث الثقافة و التعليم إذ أن كثيراً منهم قد تلقى تعليمه في فرنسا و إنجلترا.

☆ ★ ☆

ما أن وضع خليل رأسه على الوسادة بعد أن صلى صلاة المغرب حتى انغمس في النوم و لم يستيقظ إلى أن انتصف الليل على إثر صوت باب يغلق من قبل الجناح المقابل. "لا بد أن نزيل ذلك الجناح قد وصل للتو." أخذ يفكر خليل بعد أن أفاق و استيقظ.

بدأ خليل الوزان يتأمل جناحه الفاخر المكون من غرفة نوم وسيعة تكفي عائلة بكاملها، ملحقة بصالة استقبال ضعف حجم غرفة النوم ، مفروشة بأجود أطقم الكنب الإيطالي و السجاد العجمي. استغرب خليل من هذا الترف الذي يكفي لسد حاجة جميع فقراء المدينة المنورة بل و قد يفيض منه لفقراء مكة أيضاً. ثم تنهد تنهيدة أسى على حال ديرته المليئة بالفقر و الجوع و هو يرى رغد العيش في عاصمة الخلافة التي تحيا حياة لم يشهدها الحجاز منذ زمن بعيد. و تذكر في هذه اللحظة أبيات الشاعر أبو الطيب الرندي إبان سقوط مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى:

لكل شيء إذا ما تم نقصان
فلا يغر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول
من سره زمن ساءته أزمـان

ثم أخذ يحادث نفسه كيف تبدل حال المسلمين ووصل بهم الحال إلى هذا التقهقر الملحوظ. فدول المغرب العربي أصبحت

تحت السيطرة الفرنسية، و مصر تحت السيطرة البريطانية، روسيا قد مزقت أغلب ولايات وسط آسيا من الدولة العثمانية، كما أن الكثير من ولايات شرق أوروبا كبولونيا و اليونان وبلغاريا وغيرها التي جلست أكثر من أربعة قرون جزءاً من العالم الإسلامي تحت دولة الخلافة العثمانية ها قد انتزعت هي الأخرى .

" ولكن السلطان عبد الحميد الثاني مختلفاً عمن سبقه من خلفاء بني عثمان في الآونة الأخيرة. فهو يريد الإصلاح و إعادة الروح في الخلافة من جديد. " كان خليل دوماً يقول لأعيان الحجاز الذين ضاقوا ذرعاً من إهمال الدولة لبلادهم: " و هل يرجى من الأرض زرعاً بعد أن بارت " كان يرد عليه البعض ، ولكن خليل لم يكن ممن ييأسون بسهولة أو ربما لم يرد أن يدخل اليأس إلى نفسه ، فهو لم يرى البديل الأفضل ظاهراً في الأفق. فكان يخشى أن تتكرر مأساة الأندلس هنا في حاضرة العالم الإسلامي فتصبح القاهرة و بغداد و استانبول في ذاكرة المسلمين كما أصبحت طليطلة و قرطبة و غرناطة .

-" أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " أخذ خليل ينفض الأفكار السوداء التي كانت تراوده من الحين للحين ، فقرر أن يفعل ما يفعله دوماً كلما بدأ الغم و الحزن يتملكان منه.

-" بسم الله الرحمن الرحيم " ﴿ الم (1) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

☆ ★ ☆

- ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ ما كاد خليل أن ينتهي من تلاوة تلك الآية من سورة البقرة حتى ظن أنه سمع صوت طرقات على باب جناحه. استغرب من يمكن أن يكون الزائر في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل . لم تمضِ سوى ثوان حتى و جد إجابة عن سؤاله عند فتحه للباب. " لا أحد... يبدو أن بابي لم يكن المقصود بتلك الطرقات " و ما كاد أن يغلق خليل بابه حتى ظن أنه رأى شيئاً يتحرك في آخر السيب المؤدي إلى صالة التوزيع بالطابق . لم تكن الملامح واضحة لبعد المسافة و قلة الإضاءة في ذلك الوقت من الليل ولكنه حتماً رأى شيئاً ما يتحرك ، بدى له كجسم رجل.

لم يستغرق خليل الوزان فترة طويلة في التفكير فسرعان ما قرر أن يستكشف الأمر ، فتحرك باتجاه الجسم المتحرك عند آخر السيب . " لا شيء غير صالة توزيع مليئة بالتحف و الصور و بعض الأرائك و النمارق ". أخذ خليل يفكر و هو ينظر حوله محاولاً أن يجد تفسيراً منطقياً لما ظن أنه رأى ، فقرر الرجوع إلى جناحه الخاص وما كاد يفعل حتى سمع صوت خشخشة خافتاً قادماً من الطابق الأرضي من القصر. استدار خليل ملقياً نظره على السلم المؤدي إلى الطابق السفلي ، و قرر ملاحقة

الصوت ، ولم تمض لحظات حتى وجد نفسه منقاداً إلى مكتبة القصر.

دخل خليل المكتبة ووجد عدداً لا بأس به من الكتب ، ولكن ما أثارانتباهه أكثر كان جمال المكان من حيث السقف العالي المزينة حوافه بأعمال الجبس الملون بماء الذهب ، وقبة هرمية تعلو منتصف المكتبة ، لم يرى لها مثيلاً من قبل. وما كاد يخلو من تأمله للمكان حتى تذكر سبب مجيئه ، فأخذ ينظر حوله لعله يجد مصدر ما رأى و سمع من قليل. لم يكن أحد غيره في المكان ، هذا ما تأكد منه بعد أن جاب بنظره جميع جوانب المكتبة. ولكن لفت انتباهه في منتصف القاعة مجسماً هرمياً متوازياً تماماً مع القبة التي تعلوه ، وفي منتصفه تجويف على شكل عين إنسان.

-"يا لها من تحفة معمارية" قال خليل و هو يتأمل و يتفحص المجسم مستعيناً بضوء القمر النافذ من جوانب زجاجية تحف القبة الهرمية ، و كأن مصممها تعمد تسليط الضوء على ذلك المجسم بعينه الوحيدة الناظرة إلى جانب من جوانب المكتبة.

فجأة سمع خليل صوت صفير خافت ، و بعد تأمل بسيط بدى الصفير و كأنه قادم من نفس الجانب الذي تنظر إليه العين في المجسم الهرمي.

أخذ خليل الوزان يتحرك باتجاه الصفير حتى و صل إلى حائط في أسفله مدفأة حطب. ظن لوهلة أن الصوت ربما لتيار هواء قادم من المدفأة ، و لكن سرعان ما أدرك خلاف ذلك ، إذ شعر بنفحات ريح من فوق المدفأة . عندئذ أخذ الشك يراود خليل فقام بتحسس الحائط حول المدفأة فوجد ما أثار دهشته. فقد كان هناك شق دقيق على جانبي المدفأة ممتد من الأرض إلى ارتفاع مترين ، هنا بدأ يدرك خليل سر الأصوات المختلفة التي سمعها، و الجسم الذي رآه يتحرك في سيب الطابق العلوي.

-" هذا ليس حائطاً... بل باباً سرياً يخفي وراءه أمراً ما !"

☆★☆

7

استيقظ نعيم الوزان على صوت هاتفه الجوال يرن بإصرار. كانت الساعة السابعة صباحاً بتوقيت المغرب ، و كان نعيم يستمتع بنوم عميق بعد يوم حافل قضاه في اجتماع ناجح مع رجل الأعمال المغربي العلوي بن شقرون. ولكن رنين الجوال لم يجعله يكمل استمتاعه مع وسادة الفندق الطرية .

- " ألو "

- " سلام عليكم أبو عبد الله..عسى ما صحيتك من النوم؟"

كان على الخط سعد العثمان شريكه من الرياض اتصل ليطمئن على أخبار المفاوضات مع رجل الأعمال المغربي.

- " و عليكم السلام..لا عليك كان لا بد لي أن أصحى..فما من لذة تدوم"

- " طمني، كيف جرى لقاؤك مع بن شقرون؟ "

- "لقد اقتنع بالانضمام إلى تكتلنا تحت مظلة الشريك السعودي."

- "رائع..ما شاء الله عليك ، صحيح ما يجيبها غيرك يا

أبو عبدالله." قال سعد ببهجة واضحة ثم أكمل " هل ما زلت على موعد ذهابك الليلة إلى القاهرة؟ "

-" إن شاء الله "

-"إذاً سأذكّر مصطفى بأن يؤكد موعدك غداً مع فؤاد شوكت...على فكرة هل التقيت مع أستاذ الجغرافية الذي حدثتني عنه؟"

- " قصدك أستاذ التاريخ ، نعم التقيت معه حين وصولي قبل البارحة."

- " إذاً كانت رحلة موفقة على جميع الأصعدة . لن أطيل عليك و نراك قريباً إن شاء الله في الرياض . "

انتهت المكالمة بعد أن أنهت معها كل بقايا نعاس نعيم الذي قرر أن يستغل ساعات النهار قبل سفره في محاولة ترتيب لقاء مع الدكتور عبد القادر بنوزّاني ، لعله ينجح اليوم في الحصول عليه بعد عدة محاولات فاشلة البارحة قبل لقائه مع العلوي بن شقرون ، و كان قد قرر أنه لن يغادر المغرب قبل أن يلتقي مع أستاذه ولو لدقائق.

حاول نعيم بعد مضي ساعتين ، كان قد تناول أثناءها الإفطار و قرأ الجرائد ، الاتصال على جوال الدكتور عبد القادر عدة مرات ولكن دون رد . حاول بعدها الاتصال على هاتف

المنزل ، ولكن كانت النتيجة هي نفسها . "غريب لماذا لا يرد ولم يعاود الاتصال بي. أكيد ظهر له رقم جوالي اليوم و البارحة" أخذ يفكر نعيم ، و كان القلق بدأ يساوره خصوصاً بعد تذكره نهاية لقائه مع الدكتور عبد القادر بعد زيارة ذلك الضيف مدير قسم التاريخ بالمركز العربي للبحوث و الدراسات أو "المعبد" كما اختصره. تذكر لونه الشاحب و القلق الذي حاول إخفاءه عنه بعد مغادرة ذلك الضيف. " هل كانت المسألة مجرد و فاة زميل، أم أن الأمر كان أبعد من ذلك."

كلما ازداد نعيم في تحليل أحداث تلك الليلة ، كلما ازداد قلقه أكثر ، حتى قرر أنه لا جدوى من الإنتظار و خصوصاً أنه مسافر بعد ساعات، فقرر الذهاب إلى منزل الدكتور عبد القادر.

☆ ★ ☆

وصل نعيم إلى منزل الدكتور عبد القادر الذي كان يبعد بضع دقائق من الفندق . نزل من السيارة التي استأجرها بعد أن طلب من السائق الإنتظار.كان قلق نعيم على أستاذه أن يكون قد أصابته علة ما جعلته طريح الفراش ، بحيث لا يستطيع الرد على هاتفه. "ولكن ما الذي منع خادمه من الرد على الهاتف بدلاً عنه. هل يعقل أن يكون جميع الخدم في إجازة و الدكتور

عبد القادر بمفرده في المنزل مريضاً ؟ " جلست تراوده تلك الأفكار الواحدة تلو الأخرى ، وهو يتجه نحو باب الفيلا الأنيقة بحي السويسي الهادئ.

مضت دقيقة و نعيم يرن جرس الباب دون رد. " لا يوجد أحد . أين الخدم على الأقل؟ " بدأت الريبة تدخل قلبه . و لكن لم يكن أمام نعيم غير أن يحاول مرة أخرى الاتصال بجوال الدكتور عبد القادر فلعله يرد هذه المرة.

أخذ نعيم يخطو باتجاه السيارة عندما سمع ما جعله يتصلب في مكانه و يلغي اتصاله بجوال الدكتور عبد القادر ليعاود الاتصال بعد انتظار ثانيتين. لم يكن هناك أدنى شك لدى نعيم ، لقد كان جوال الدكتور عبد القادر يرن من داخل المنزل !

بدأ القلق يتملك نعيم أكثر ، لا أحد يرد على جرس الباب، و منذ البارحة و الدكتور عبد القادر لا يجيب على جواله أو هاتف المنزل ، ومن الواضح أن جواله في الداخل . فإما أن يكون قد سافر إلى مكان ما دون إخباره و قد نسي الجوال ، أو أن يكون...

لم ينتظر نعيم حتى يستعرض باقي الاحتمالات. فاتخذ قراراً و عزم عليه.

ذهب نعيم للسائق الذي معه ، و عرض عليه عرضاً لم يعتده من زبائنه المحترمين ، و غير المحترمين . " ولكن لم لا " ظن السائق . مائة درهم مقابل القفز فوق سور المنزل وفتح باب الحديقة لا يبدو عملاً شاقاً أو صعب التنفيذ.

ما أن فتح السائق الباب حتى هرع نعيم نحو الباب الداخلي و هو يدعو الله أن لا يجده مغلقاً بالترباس.

-"دكتور عبد القادر" أخذ ينادي نعيم بعد فتحه الباب الذي لم يكن مسكوكاً ، وكما لو أن الله قد استجاب لدعائه. " دكتور عبد القادر هذا أنا نعيم" استمر في النداء دون جدوى ثم نظر إلى هاتفه الجوال فعاود الاتصال مرة أخرى ليتتبع صوت الرنين .

قاده رنين جوال الدكتور عبد القادر في اتجاه المكتب الذي كان قد لمحه عند زيارته قبل يومين. بدأ يتذكر نعيم أحداث تلك الليلة و بالأخص وجه الدكتور عبد القادر الشاحب بعد مقابلة ضيفه في المكتب الذي يتجه إليه الآن.

-" دكتور عبد القادر..." نادى نعيم و هو يفتح باب المكتب. ثم دخل ليجد أمامه مالم يخطر أبداً على باله أنه سيرى في يوم من الأيام ، حتى أنه لوهلة ساوره الشك في أن يكون مستيقظاً فلعله ما يزال في الفندق طريح الفراش ، يحلم بهذه الأحداث

اللامعقولة، ولكن نعيم أدرك أنه لم يكن يحلم ، فلقد كان ما يرى أمامه واقعاً مهماً حاول للوهلة الأولى التشكيك فيه.

الدكتور عبد القادر بنوزّاني أستاذ التاريخ، ذلك العقل الجبار النافذ ، ذلك المثقف المرموق، لم يكن الآن سوى جثماناً هامداً، معلقاً بحبل حول رقبته من الثريا... مشنوقاً!

☆ ★ ☆

8

تمر على الإنسان أحداث قد لا يجد لها معنى. وتمر أحداث يكون المعنى فيها واضحاً. وفي أحيان أخرى تمر على الإنسان أحداث قد تبدو في الوهلة الأولى أن ليس لها معنى ، و لكن سرعان ما ينجلي عنها معان و معان كفيلة بأن تغير مسار حياته إلى الأبد. كانت الأحداث التي بدأ يمر بها نعيم الوزان منذ قدومه إلى المغرب هي من النوع الأخير.

قضى نعيم ساعات رحلته من مطار محمد الخامس الدولي إلى مطار القاهرة الدولي و هو غارق في حيرته مما جرى في الرباط. لم يصدق أنه شهد وفاة أستاذه الذي لم يره منذ سنوات. و أي وفاة هذه التي توفاها. "أيعقل أن يشنق الدكتور عبد القادر نفسه ؟ و لكن لماذا ؟ " و ما أدهش نعيم أن لقاءه الأخير مع الدكتور عبد القادر لم يكن فيه ما يدل على حالة نفسية سيئة تجعل صاحبها يرغب في التخلص من هموم حياته عن طريق الإنتحار. بل على العكس كان الدكتور عبد القادر متحمساً لمشروع كتابه الجديد الذي حدثه عنه في تلك الليلة.

أخذ نعيم يسترجع تفاصيل ما حدث لعله في مراجعته هذه يكتشف سبباً خفي عليه يفسر سبب انتحار أستاذه. لم يشب تلك الليلة ما عكر صفو اللقاء سوى خبر الوفاة الذي تلقاه الدكتور عبد القادر من ذلك الضيف. لم يبدُ لنعيم أن وفاة زميل أو حتى صديق قد يكون سبباً يجعل شخصاً مثل الدكتور عبد القادر يقدم على الإنتحار.

الحقيقة أن نعيم مع غرابة أحداث تلك اللية و ما سمع فيها عن جده و عن الكتاب الذي سيفشي أسراراً جديدة عن حقبة سقوط الخلافة العثمانية ، لم يجد في استعراضه للأحداث كما يتذكرها ما يفسر ما حدث بعد ذلك لأستاذه ، فأخذ يفكر أن لعله كان هناك أمراً ما يخفيه الدكتور عبد القادر جعله يقدم على عمل يائس كالإنتحار، و فجأة بدأت صورة الجثة المشنوقة تملأ رأس نعيم ، ذلك المنظر الأليم لأستاذه و البيجاما الغريبة التي كان يرتديها الأشبه برداء لعبة الجودو ولكن دون حزام أو زرائر، كاشفة عن صدره و بطنه. و لم يكن ذلك هو الجزء الوحيد العارِ من جسده كما تذكر نعيم، و لكن لسبب ما كان ساقه الأيسر مكشوفاً حتى الركبة. لم يعتقد نعيم أنه سينسى ذلك المنظر أبداً مهما مرت السنوات. و ما ضاعف من حزنه هو جهله السبب الذي قاد أستاذه للإنتحار.

حطت الطائرة في مطار القاهرة الدولي و كأنها لم تقلع إلا منذ بضع دقائق ، فقد مضى الوقت دون أن يشعر به نعيم و هو مغرق في تأملاته. وسرعان ما بدأ رنين جواله يعلو مذكراً إياه بواقع الحياة المليء بالمشاغل.

☆ ★ ☆

استمرت المكالمات الواحدة تلو الأخرى من شريكه سعد العثمان و مدير مكتبه مصطفى نديم و غيرهم. و عندما لم يكن هناك اتصال كانت الرسائل لا تنقطع ، القليل منها معزية في أستاذه المقرب الذي توفى ، أما غالبية الرسائل كانت متعلقة بأمور العمل مذكرة إياه بسبب تواجده في القاهرة بعد أن تأخر يومين عن موعد مجيئه إلى القاهرة نتيجة حادث الوفاة و إصرار نعيم على حضور الدفن و العزاء .

استقل نعيم السيارة التي كانت في انتظاره و طلب من السائق أن يأخذه مباشرة إلى الفندق. أثناء الطريق استغل نعيم الوقت في مراجعة جدول مواعيده المخزن على جهازه المحمول. كان أهم موعد هو الذي أتى به أساساً إلى القاهرة و هو موعده مع فؤاد شوكت رئيس مجلس إدارة شركة بنية الاتصالات ، و هي إحدى الشركات الأساسية في التجمع العربي التركي للاتصالات الراغب على استحواذ رخصة الجوال الثالثة في السعودية. كانت

المفاوضات التي كلف بها نعيم من قبل باقي الشركاء السعوديين و التي أخذته إلى الرباط ومن ثم إلى القاهرة ، تتعلق بمن سيتولى إدارة الشركة الجديدة التي سينشؤها التجمع. كان نعيم و باقي الشركاء السعوديين يرغبون في أن يتولوا هم الإدارة ، ولكن العقبة كانت في أن حصتهم لم تتجاوز الثلث. أملهم الوحيد كان في إقناع الشريك المغربي العلوي بن شقرون، و من ثم استخدامه كورقة ضغط على الشريك المصري فؤاد شوكت. كان أسلوب نعيم في المفاوضات ، و الذي أكسبه ثقة باقي الشركاء يعتمد على كسب ثقة الطرف الآخر أولاً. يعتمد في ذلك على محاولة معرفة اهتماماته ، و من ثم التحدث فيها قليلاً و الاستماع إلى الآخر كثيراً. كان قد تعلم من والده الذي كان بدوره من كبار تجار المدينة ، أن يستمع أكثر من أن يتحدث إذا أراد فهم من أمامه و حتى يكتشف مفتاح شخصيته التي من خلالها يستطيع الحصول على ما يريده منه. ذلك الأسلوب كان يجعل الطرف الأخر من النقاش يرتاح لحسن إنصات نعيم و في نفس الوقت كان يمكن نعيم من التقاط الدلائل على مفتاح الشخصية من خلال كلامه. ذلك ما مكن نعيم من كسب ثقة و إقناع العلوي بن شقرون عندما اكتشف بعد عشر دقائق من اللقاء أنه من عشاق الطرب الشرقي الأصيل. فحدثه نعيم عن بعض الجوانب

التاريخية التي لا يعلمها الكثيرين عن تطور الغناء الشرقي منذ زمن عبده الحامولي في القرن التاسع عشر و علاقته مع الخديوي إسماعيل حاكم مصر في ذلك الوقت ، وعن ذهابه إلى استانبول و تأثره بالمقامات التركية التي أدخلها على المقامات الشرقية محدثاً تطوراً في الغناء الشرقي ، و تناول الحديث رواداً آخرين في الغناء الشرقي كمحمد عثمان و سلامة حجازي و سيد درويش و استخدامه للغناء في التعبير عن احتقان الشعب المصري قبيل ثورة 1919 وغيرها من المواضيع التي استمر الحديث فيها قرابة الساعة قبل التطرق إلى الموضوع الذي قدم من أجله نعيم، استطاع خلالها كسب العلوي بن شقرون صديقاً و ليس فقط شريك عمل . ذلك الأسلوب الفريد هو الذي كان يمكن نعيم الوزان في مفاوضاته للحصول على الكثير من المكاسب ، و مع ذلك كان دائماً يحرص على أن تكون المكاسب تشمل جميع الأطراف ، و أن لا يغبن حق أحد الأطراف.

كان الطريق من المطار إلى الفندق مزدحماً ، فبالرغم من مرور ثلاثين دقيقة إلا أن السيارة لم تقطع سوى نصف المسافة ، مما جعل نعيم يستغل الوقت في إنهاء بعض المعاملات البسيطة عبر رسائل الجوال و إجراء بعض المكالمات.

بعد فروغ نعيم من جواله بدأ يلتفت إلى الطريق و يتأمل

الأرصفة المكتظة بالمارة و المتسوقين و الذين ينظرون إلى نوافذ المحلات التجارية ، بعضهم متردد في الدخول إلى المحل والبعض الآخر يبدو أنه قد حسم المسألة و اكتفى بتأمل البضاعة عبر النوافذ. لقد تغيرت القاهرة على نعيم بعض الشيء منذ آخر زيارة له قبل عشر سنين . عمائر جديدة و محلات راقية و مقاهي عصرية على الطراز الأمريكي كلها لا يتذكرها في زيارته السابقة . حتى شارع الملك عبد العزيز آل سعود في المنيل الذي كان ملتقى الشباب السعودي في ذلك الوقت بدى كورنيشه أكثر خضاراً و أنظف مما كان عليه في السابق. استمر نعيم في تأملاته هذه لشوارع القاهرة حتى انتبه إلى مقهى كان يبدو الإقبال عليه كثيفًا من قبل الشباب أكثر من غيره بشكل واضح.

تأمل اسم المقهى ، و إذ لدهشته كان اسمه مثل اسم المقهى الذي ارتاده عندما كان في الرباط "الهرم الذهبي". استغرب من هذه المصادفة و لكن سرعان ما أدرك أنه ليس فقط متشابهاً في الاسم بل و في نفس الشكل الخارجي للمبنى على شكل هرم يتوسط حديقة بيضاوية. هنا أدرك نعيم أنها لا بد أن تكون سلسلة من المقاهي في مصر و المغرب ، و للتأكد سأل السائق :

-" ما هذا المقهى على شكل هرم؟ "

-"هذا مقهى إنترنت شهير اسمه الهرم الذهبي. يقال أن

به أسرع خطوط إنترنت و قهوته رائعة."

-" هل هناك فروع أخرى أم هذا هو الفرع الوحيد؟ " سأل نعيم

-" لا ، بل هناك فروع عديدة في القاهرة و في مدن أخرى في مصر."

-" و في خارج مصر أيضاً. لقد ذهبت إلى واحد في الرباط، ولكني لم أدرك وقتها أنه جزء من سلسلة مقاهي مشهورة و منتشرة على الأقل في المغرب و مصر." أضاف نعيم .

-"هي لم تكن منتشرة في مصر قبل سنتين. أظن أني سمعت أنها سلسلة مقاهي تابعة لشركة مغربية ، و فروع مصر هي الأولى في العالم العربي خارج المغرب."

-"غريب ، مع أن الاسم يوحي بأنها شركة مصرية..هنا الأهرامات و ليس في المغرب." علق نعيم و قد اندهش من مدى انتشار هذه السلسلة من المقاهي و التي لم يسمع بها من قبل إلى أن رآها في المغرب ثم الآن في مصر.

وصل نعيم إلى الفندق المطل على النيل بعد مضي قرابة خمس و أربعون دقيقة في الطريق من المطار. و ما أن دخل غرفته حتى كان طريح الفراش من شدة التعب. استغرق في النوم حتى أذان الفجر، إذ قام بعد نوم عميق ، شعر بعده أنه بحاجة إلى

حمام دافئ ينعشه قبل أن يصلي ركعتي الفجر.

كان أمام نعيم يوماً حافلاً على رأسه اجتماعه مع فؤاد شوكت بعد الظهر. وكان عليه أن يستعد جيداً لذلك الاجتماع، ففؤاد شوكت رجل أعمال حذق و مشهور بقدرته التفاوضية وخبرته الواسعة في مجال الاتصالات. كان اختيار نعيم بخبرته المحدودة نسبياً مجازفة ما كان ليقدم عليها الشركاء السعوديون لولا ثقتهم في ذكائه و قدرته الكبيرة في كسب صف من أمامه. شعر نعيم أن أفضل استعداد ليومه الحافل هو في المشي حول الفندق و مشاهدة شروق الشمس على ضفاف النيل .

بعد ساعة من المشي رأى نعيم على بعد خطوات مبنى عرفه من شكله الهرمي الذي أصبح مألوفاً الآن له، فقرر دخوله وضرب عصفورين بحجر واحد، فمنها يتناول الإفطار و في نفس الوقت يستطيع الدخول على بريده الإلكتروني.

تذكر نعيم تعليق السائق على كون مقهى الهرم الذهبي مشهوراً بقهوته اللذيذة و سرعة الإنترنت الفائقة. لمس ذلك و هو يحتسي القهوة و يدخل على موقع بريده الإلكتروني فما أن ينقر على أزراره لتغيير الصفحة ، حتى يجد الصفحة التي يقصدها قد ظهرت دون أدنى انتظار، مما مكنه من تصفح بريده و الرد عليه في سرعة قياسية. بعدها وجد نعيم أنه ما زال لديه متسعاً من الوقت لتصفح بعض المواقع ، فقرر الدخول على بعض مواقع الصحف و الساحات السياسية ، ثم تذكر بريده السري الذي

يستخدمه فقط للتسجيل في تلك المواقع فقرر الدخول عليه.

لم يتذكر نعيم متى آخر مرة جاءته رسالة على بريده السري الخاص بالساحات. كل ما يتذكره بعض الدعاية و طلبات الاشتراك التي تبعث على جميع العناوين لالتقاط الزبائن ، و لكنه لا يتذكر مجيء رسالة معنونة إليه على هذا الموقع بالتحديد، فلا أحد غيره يعلم بامتلاكه لذلك العنوان ، فهو لم يفض به لأي أحد. لذلك كانت دهشته كبيرة عندما وجد عليه رسالة موجهة إليه بالاسم. و كانت دهشته أكبر عندما قرأ نص الرسالة و بلغت الدهشة ذروتها عندما قرأ اسم المرسل:

عزيزي نعيم :

لقد سعدت بلقائك البارحة .. فقد كانت أمسية جميلة قضيتها في حوار معك لا يمل .

لا أدري إن كنا سنلتقي مجدداً أم لا، فهناك الكثير من المواضيع التي كنت أود التحدث فيها معك .. ولكن يبدو أنه لا نصيب لي في ذلك .

في الختام أقرئك السلام

تحياتي إلى طلعت أحمد نجاتي

و رحم الله جدك خليل 256- 114/2

عبد القادر بنوزّاني 8-114/2

☆ ★ ☆

9

عام 1908

قضى خليل الوزان الساعات المتبقية من الليل و هو في حيرة من أمره لا يجد تفسيراً لما جرى . أصوات خافتة أيقظته من النوم أدى تتبعها إلى باب مخفي في حائط مكتبة قصر الضيافة الذي حاول فتحه ولكن دون جدوى . وما زاد من حيرته هو اختفاء تلك الأصوات التي سمعها حيث لم تتجدد و كما لو أنها لم تكن. هل كان ذلك أحد حراس القصر يتفقد المكان؟ أو أحد المقيمين من باقي مجلس المبعوثان ، لعله الأرق يجوب طرقات القصر و يتفقد قاعاته الشاغرة في ظل سكون الليل؟ هل كانت الأصوات التي سمعها تتجه نحو ذلك الباب السري؟ أسئلة جلست تراوده دون أن يجد لها إجابة تقنعه. عندها قرر خليل أن يقوم بعمل جريء لعله يضفي بعض الضوء على المسألة. قرر أن لا يذهب إلى جناحه الخاص و يبقى في المكتبة ممسكاً بأحد الكتب ، و كأنه قرر أن يقضي باقي الليل في القراءة فيرى إن كان ذلك الباب سيفتح. من يدري ربما تلك الأصوات التي

سمعها كانت لشخص قد استخدم ذلك الباب للذهاب لمكان ما و قد يستخدمه مجدداً للرجوع عبره. اتخذ خليل القرار و جلس على أريكة في أحد الزوايا ممسكاً بكتاب وقد أشعل مصباحاً مجاوراً.

مضت ساعات الليل و دخل ضوء الشمس عبر نوافذ المكتبة الفارهة ولم يفتح الباب السري طوال ذلك الوقت ، وكانت أصوات الخدم قد بدأت تملأ القصر منبهة خليل أنه لا فائدة من الإنتظار أكثر من ذلك ، فلن يفتح الباب بعد أن استيقظ الجميع.

☆ ★ ☆

كان يوم خليل الوزان حافلاً بعدة لقاءات أهمها مع السلطان عبد الحميد الثاني بعد صلاة الظهر للسلام عليه ضمن باقي أعضاء مجلس المبعوثان. لم يلتق خليل من قبل مع السلطان، و لكنه سمع الكثير عنه من كاظم باشا والي المدينة المنورة ، والذي كان مقرباً من السلطان عبد الحميد الثاني. كان كاظم باشا يكن الكثير من الإحترام لخليل الوزان و يستمتع في التسامر معه. كان دوماً ما يحكيه عن أحوال عاصمة الخلافة و فساد من تولوا مناصب الصدارة العظمى في مقابل ورع السلطان عبد الحميد الذي على حد قوله كان يحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه

من الدولة في ظل الفساد و المؤامرات المحيطة به. كان كاظم باشا يشتكي دومًا من حركة الإتحاد و الترقي التي سيطرت على الجيش و أرغمته على الإستقالة بعد أن كان برتبة مشير، وأبعدته عن مراكز السلطة في العاصمة و ذلك لولائه للسلطان الذي أخذ نفوذه يضعف. كان انحياز كاظم باشا للسلطان و كرهه للاتحاد و الترقي واضحاً إلى درجة المبالغة ، حتى أنه احتدم النقاش أكثر من مرة بينه و بين خليل عندما حاول الأخير أن يكون أكثر موضوعية في التحدث عن السلطان و حركة الإتحاد و الترقي التي هي الأخرى على حد قوله كانت تحاول إصلاح البلاد و لكن عن طريق تقليص هيمنة السلطان و إحداث حياة نيابية تتشارك فيها الأقاليم في صنع القرار. كان خليل دائماً ما يهدئ من غضب كاظم باشا مقدراً له وفاءه الشديد للسلطان.

☆ ★ ☆

لم ير خليل الوزان في حياته قصراً أروع أو أجمل من قصر الدولمة بهجة الذي يقطن فيه سلاطين بني عثمان منذ بنائه في منتصف القرن التاسع عشر في عهد السلطان عبد المجيد. كان القصر يقع في قلب استانبول مطلاً على ضفاف مضيق البوسفور. من يرى عظمة و شموخ الدولمة بهجة، و التي تعني الحديقة الغناء بالتركية، لا يقول أنها مركز عاصمة دولة

تنهار و يتكالب عليها الأعداء كتكالب الأكلة على قصعتها. كان الإنبهار واضحاً على خليل و على جميع أعضاء مجلس المبعوثان و هم يدخلون القصر من بوابته الفارهة لمقابلة السلطان عبد الحميد الثاني.

لم يطل اللقاء مع السلطان، فبعد المصافحة ألقى على الحضور كلمة قصيرة حثهم على مراعاة الله في عملهم والحرص على عمل من أجل رفعة البلاد ووحدتها، ثم دعاهم إلى وليمة غداء تكفي لسد حاجة سكان المدينة المنورة و القرى المجاورة بأكملها. في أثناء ذهاب خليل إلى قاعة الطعام مر بجانبه شيخ يبدو عليه الوقار في العقد السادس من عمره، ضم كفه بكف خليل الذي تعرف عليه على الفور.

- " شيخ أبو بكر، ما هذه المصادفة الجميلة " قال خليل ببهجة واضحة .

- " كيف حالك يا خليل. ما هذه الغيبة يا رجل ، ألم تعدني في آخر لقاء لنا عندما زرتك في المدينة المنورة بأنك سترد لي الزيارة في القدس؟ " قال الشيخ أبوبكر الحسيني معاتباً عتاب المحب لخليل الذي التقى به آخر مرة منذ سنتين عندما زار المدينة بعد أدائه فريضة الحج .

- "اشتقت لك يا شيخنا و لأحاديثك الممتعة."

علم خليل من الشيخ أبوبكر الحسيني أنه هو الآخر في مجلس المبعوثان مبعوثاً من القدس و أنه يسكن في بيت أخيه الذي يعمل مدرساً للشريعة الإسلامية في كلية الحقوق. كما علم منه عن أنباء تخص القدس و باقي فلسطين أثارت فيه القلق.

- "ولكن هل هذه الهجرة منظمة أم أنها من قبيل المصادفة؟ " سأل خليل .

- "خليل يا ولدي، الحياة علمتني أن **الصدف هي تبرير الجاهل لما لا يفقه**. اليهود يأتون بأموال و يصرفونها صرف من لا يخشى الفقر. يشترون الأراضي بأضعاف ثمنها يثيرون بها لعاب البسطاء . بعض الأعيان لا يبدون أي تخوف منهم لقلة عددهم مقارنة مع المسلمين و لكن..." ثم صمت الشيخ أبو بكر.

- " و لكن ماذا ؟ "

- "خليل...هل سمعت عن شخص يدعى تيودور هرتزل؟"

- "لا..لا أظنني سمعت بهذا الاسم من قبل."

- "مع الأسف الكثيرون لم يسمعوا بهذا الرجل مع أنه يلعب دوراً خطيراً جداً أخشى على بلادنا من آثاره المدمرة "

- " أقلقتني ، من هو هذا تيودور هرتزل ؟ "

- " إنه رئيس الوكالة اليهودية الصهيونية . "

-" الوكالة اليهودية الصهيونية ؟ " ردد خليل متعجبًا .

-" نعم..هذه مؤسسة أنشأها هرتزل منذ عدة سنين هدفها إيجاد موطن لليهود يتجمعون فيه. و قد جاءتني أنباء على أنه قد قابل السلطان عبد الحميد و طلب منه أن يشتري أرض فلسطين لإقامة وطن لليهود عليها."

-" ماذا ! " صرخ خليل ملفتاً أنظار بعض الحضور من حوله.

-" إهدأ خليل.. فقد رفض السلطان عرض هرتزل و طرده من قصره."

-" الحمدلله." ردد خليل الذي ارتاح لسماع هذا الخبر.

-"ولكن الأمر لم ينته بعد... هذه كانت فقط البداية."

☆ ★ ☆

في نفس الأثناء في جانب آخر من قصر الدولمة بهجة كان رجلان يتحدثان بعد أن اطمأنا أنهما ابتعدا عن الأنظار.

-"مبارك عليك مجلس المبعوثان ، لقد قمنا بجهد كبير حتى نوصلك إلى هذا الموقع."

-"ولكن وجود خليل الوزان لم يكن ضمن المخطط. أما كان باستطاعتكم فعل شيء ؟ "

-"لا...لقد لقي دعماً كبيراً من أهالي المدينة و من كاظم

باشا الذي ظننا أننا تخلصنا من رذالته بإبعاده إلى المدينة ولكننا يبدو أسأنا التقدير. كان يجب أن يقصى تماماً."

-"وما كان بوسعه أن يفعل إذا أتيتم بغير الوزان؟ لقد أقمتم له حسابًا أكثر مما ينبغي."

-"إحفظ رأيك لنفسك و لا تنس موضعك! من أنت حتى تحاسبنا و تقرر ما كان يجب أن نفعل! تذكر نحن الذين زيفنا نسب أسرتك إلى آل البيت و نحن من أتينا بك إلى هنا بالرغم من معارضة أغلب أعيان و أشراف مكة."

-"آسف...لم..." قال الرجل و قد شعر أنه تجاوز حدوده

-"ومع ذلك لابد أن تفهم أن السياسة هي فن الممكن. **ولا بأس من خسارة معركة من أجل كسب الحرب .** لو أننا أقصينا خليل الوزان و بالذات بعد أن أتينا بك أنت لكان ذلك أثار كاظم باشا و لا أستبعد حينها إن أوصل الأمر إلى عبد الحميد الثاني. و أنت تعرف أن عبد الحميد الثاني ليس بالأبله ، و لربما لفت ذلك الأمر انتباهه إلى ما نخطط له... نحن الآن قد اقتربنا من الهدف الذي عملنا من أجله قرونا ، و أصبحت لحظة الحسم وشيكة جدا. أفهمت؟ "

-" نعم... فهمت." قال الرجل و قد تصبب عرقاً.

☆ ★ ☆

10

طا زاد من حيرة نعيم الوزان بعد قراءته الرسالة المبعوثة له من قبل الدكتور عبد القادر هو عنوان البريد الإلكتروني الذي بعث عليه الرسالة. فهذا العنوان لا يعرفه أحد سواه، و لا يستخدمه سوى للتسجيل في مواقع الساحات. من أين للدكتور عبد القادر معرفة هذا البريد الإلكتروني الخاص؟ ثم قرأ نعيم التاريخ الذي بعث فيه الرسالة فوجدها قد بعثت في اليوم التالي من آخر لقاء له مع الدكتور عبد القادر.

استمرت التساؤلات الواحدة تلو الأخرى تتهافت على ذهن نعيم و ما أن يشرع في الإجابة عن سؤال حتى يتسارع سؤال آخر إلى ذهنه. ولكن الأسئلة التي ألحت نفسها أكثر من غيرها هي: من هو طلعت أحمد نجاتي؟ و ما سر الترحم على جده خليل؟ و ما هذه الأرقام التي تبعت اسم جده و اسم الدكتور عبد القادر؟

بعد تفكير طويل قرر نعيم أن خير ما يفعله هو أن يجد طلعت أحمد نجاتي الذي طلب منه الدكتور عبد القادر السلام

عليه و لعله إن وجده أن يضفي بعض الضوء عن مغزى الرسالة.

"ولكن كيف السبيل إلى إيجاد ذلك الشخص؟ أين يسكن ؟ هل هو من أهل الرباط ؟ أم يسكن مدينة أخرى في المغرب ؟ ربما لا يسكن المغرب ، فالاسم يغلب عليه الطابع المصري. أيعقل أن يكون ذلك الشخص في مصر بالرغم من أن الرسالة قد بعثت عندما كنت بالمغرب؟ " استمرت الأسئلة تنهمر الواحدة تلو الأخرى حتى قرر نعيم على الخطوة الأولى مكبحاً سيل الأسئلة، فأخذ جواله و دق على رقم مدير مكتبه مصطفى نديم.

- "صباح الخير يا مصطفى..كيف حال الأمور في الرياض."

- "صباح الخير أبو عبدالله، أبشرك الأمور على أحسن ما يرام."

- "مصطفى، أريد منك أن تبحث لي عن رقم هاتف و عنوان رجل يدعى طلعت أحمد نجاتي. ستجده إما في المغرب أو في مصر أو ربما في السعودية، لست متأكداً." قال نعيم لمصطفى الذي يجيد فن البحث عن أي معلومة على وجه الأرض باستخدام أكبر مكتبة عرفها العالم ، الإنترنت.

- "أمرك أبو عبدالله، ولكن من هو هذا الشخص؟"

- "سأخبرك لاحقاً. ولكني أريد المعلومات في أقرب وقت."

- "لا عليك، إن شاء الله ستكون عندك بعد انتهائك من الإجتماع مع فؤاد شوكت...لا تنس يا أبو عبدالله سيكون الإجتماع في قصره بمصر الجديدة. لقد أرسلت لك العنوان البارحة."

- "نعم وصلني، شكراً." قال نعيم.

- "أي أوامر أخرى؟"

- "تسلم شكرا، ربما لاحقاً بعد أن تأتي لي بما طلبت بخصوص طلعت أحمد نجاتي."

- "إن شاء الله ستكون عندك اليوم...و بالمناسبة بلغ سلامي لسوزي." قال مصطفى وقد أطلق ضحكة خبيثة.

- "سوزي..من سوزي؟" سأل نعيم متعجباً.

- "ستعرف قريبًا." قال مصطفى بنبرة مشاغبة فهمها نعيم الذي دعا في سره لمصطفى بالهداية.

☆ ★ ☆

11

دخلت السيارة التي تقل نعميم الوزان من بوابة الحديقة و سارت نحو مائتي متر قبل أن تقف قرب باب القصر. كان القصر مبنيًا على الطراز الهندي مع بعض اللمسات الأوروبية ذكره إلى حد كبير بقصر البارون الشهير في مصر الجديدة. الحديقة كانت هي الأخرى لا تقل روعة بنوافيرها و الأشكال الهندسية الذي نسق عليه الزرع و النخيل. لقد رأى نعيم قصوراً كثيرة قد تكون أكثر فخامة و كلفة، ولكنه لم ير واحداً يتفوق على قصر فؤاد شوكت في تناسقه و ذوقه الرفيع الذي أعجب به نعيم أشد الإعجاب.

ما أن توقفت السيارة و خرج منها نعيم حتى فتح الباب الرئيسي للقصر و خرجت منه امرأة ثلاثينية جميلة المطلع، ترتدي جيبة سوداء تصل إلى الركبة يعلوه قميص أبيض رسمي يغطي جسداً نحيفًا. أدرك نعيم بفطنته أنها غالباً ما تكون هي سوزي التي ذكرها مدير مكتبه مصطفى.

-"أهلا و سهلا نعيم بيه، أعرفك بنفسي أنا.."

-" سوزي" قال نعيم مقاطعًا للمرأة التي بدا عليها شيء من الدهشة لمعرفة نعيم اسمها.

-"نعم..أنا آسفة هل سبق أن التقينا ؟ " سألت باندهاش.

-"لا..لم نلتق ولكني سمعت عنك من مدير مكتبي."

-" مصطفى. " قالت سوزي بابتسامة بعد أن فهمت سر معرفة نعيم لها و هما لم يلتقيا من قبل.

-" يبدو أنكما تعرفان بعضكما." قال نعيم.

-"لقد سبق أن التقينا في دبي في مؤتمر القيادة. تعرفت عليه عن طريق صديق مشترك. لم ألتق به سوى تلك المرة في دبي ثم تجددت المعرفة عندما كنا نرتب للقائك مع فؤاد بيه. أنا بالمناسبة المساعدة التنفيذية لفؤاد بيه، هو الآن في انتظارك على البيسين." قالت سوزي بدران هذا ثم استدارت مرشدة إلى الطريق عبر ردهة القصر، أخذت إياه إلى قاعة مطلة على حمام السباحة و قد فتحت أبوابها ليخرجا إلى الحديقة الخلفية التي لا تقل روعة عن مثيلتها الأمامية.

كان في الانتظار رجل في عقده الخامس ذو مظهر أرستقراطي متوسط القامة، أنيق الملبس.

-" أهلاً و سهلاً نعيم بيه. شرفت بيتي المتواضع." قال الرجل محيياً نعيم.

-" السلام عليكم سيد فؤاد ." رد عليه نعيم مصافحاً.

أشار فؤاد على نعيم و سوزي بالجلوس ثم أمعن النظر في نعيم .

-"أنت أصغر مما كنت أتوقع. حسبت أني سألتقي برجل عجوز مثلي" قال فؤاد بابتسامة ملاطفاً نعيم.

-"ما شاء الله عليك ، لو أنك عجوز فلا أدري من يكون الشباب." قال نعيم راداً الابتسامة و الملاطفة لفؤاد الذي سر من تلك المجاملة.

-"بالمناسبة.. قالت لي سوزي أن صديقاً لك قد توفي في المغرب عندما استفسرت عن سبب تأجيل موعدنا السابق ، البقية في حياتك."

-"شكراً لك ، لقد كان أكثر من مجرد صديق ، فكان أيضاً أستاذي لذلك لم أستطع أن أترك المغرب قبل أن أحضر الدفن و العزاء." صمت نعيم قليلاً ثم أضاف " رحمة الله عليه كان من الشخصيات الثقافية المرموقة في العالم العربي..أظنك سمعت به..الدكتور عبد القادر بنوزّاني."

هز فؤاد رأسه بالنفي.

-"لا مع الأسف لم أسمع به... ولكني أقدر وفاءك له. فأنا أقدر الرجل الوفي. هذه خصلة نادرة هذه الأيام... بالمناسبة

لقد سمعت عن لقائك مع العلوي بن شقرون وأنك قد أقنعته بتأييدك أنت و باقي الشركاء السعوديين في السيطرة على مجلس الإدارة و انتخاب الشيخ علي السليمان رئيساً. أصدقك القول أنا لست موافقاً على ما تحاولون فعله. مع احترامي الشديد لكم و للشيخ علي السليمان ولكن كمال أغلو هو الأنسب لإدارة الشركة، فهو أكثرنا خبرة في مجال الاتصالات و زيادة على ذلك لا تنسى علاقاته مع العديد من شركات الإتصالات في أوروبا مما يجعلنا أكثر قدرة على التنافس في سوق ليس بالسهل كسوق الاتصالات في السعودية." قال فؤاد مبتدئاً النقاش الذي أتى من أجله نعيم.

-"مع تقديري لرأيك و لكن للموضوع جانباً أخر، أنت تعلم مدى مكانة الشيخ علي السليمان كأحد أكبر رجال الأعمال في السعودية و العالم العربي. خبرته في تأسيس و إدارة الشركات الناجحة معروفة لدى الجميع. بدونه لما كان للتكتل من وجود في ظل منافسة شديدة جداً. و تذكر أننا بحاجة لرجل بمكانته على رأس شركتنا في السعودية." رد نعيم بعد أن باغته فؤاد ببدئه للحوار.

-"نعيم بيه، حضرتك على حق في ما قلت." تدخلت سوزي لإنقاذ موقف رئيسها "و لكن تذكر أننا بحاجة أيضاً لإمكانيات

كمال أغلو، و هذا لا يعني أنه سيستمر في الإدارة إلى الأبد و لكن على الأقل في البداية و في الأثناء ستكتسبون الخبرة اللازمة في مجال الإتصالات و التي ستؤهلكم للإدارة فيما بعد."

أدرك نعيم أن سوزي بمهارة قد أعادت دفة الحوار لصالح فؤاد شوكت. بل ما أزعجه أكثر هو أنه على غير ما يفضل قد فقد السيطرة على طريقة سير الحوار فكان لا بد له إلا أن يجد مخرجاً لكسب ثقة وود جليسه من أجل تسهيل مهمته.

نظر نعيم حوله سائلاً نفسه "ما ياترى من الممكن أن يكون مدخل ذلك الرجل؟"، وفي ومضة من التجلي أتته كالبرق، شعر أنه وجد الإجابة.

-"سيد فؤاد عفواً لتغيير الموضوع، و لكن هناك أمراً ما يثير فضولي وأود الاستفسار عنه." هكذا دون سابق إنذار بدأ نعيم يغير موضوع الحديث دون أن يعطي لسوزي بدران أو لفؤاد شوكت فرصة للإعتراض. "هل استوحيت تصميم قصرك من قصر البارون إدوارد إمبان؟" رمى نعيم الطعم أملاً أن يتلقفه فؤاد شوكت.

-" عفواً نعيم بيه لو نرجع لموضوعنا...." بدأت سوزي ولكن سرعان ما قاطعها فؤاد:

-" هذه ملاحظة في محلها تماماً، و لكن ما أدراك بقصر

البارون و باسم بانيه ؟ " سأل فؤاد باستعجاب.

-"أنا أهوى المعمار و بالأخص القديم منه و ما يتصل به من تاريخ و البارون إمبان له تاريخ حافل في مصر يكفيه أنه هو المخطط لضاحية مصر الجديدة التي نحن فيها الآن و التي يوجد فيها قصره الجميل و الذي مع الأسف لم يجد سوى الإهمال بعد وفاته." قال نعيم و قد أدرك أن طعمه قد أتى بؤكله.

-" لقد أدهشتني يا نعيم. أنت أول شخص منذ زمن يبدي هذه الملاحظة الذكية ، بل أنت أول شخص يذكر حتى اسم البارون الذي عشق مصر أكثر من أي مكان آخر في العالم وهو الغير مصري." قال فؤاد مندهشا من نعيم السعودي الذي يعرف تفاصيل قل ما يعرفها الكثير من المصريين و غير المصريين.

-" هو بلجيكي الأصل عاش فترة من حياته في الهند قبل أن يسكن مصر، و من هنا تأثره بالمعمار الهندي الذي يتصف به قصره." أضاف نعيم ثم أكمل "ولو لم تخني الذاكرة فقد دفن البارون إمبان هنا في مصر الجديدة."

-"نعم هذا صحيح في كنيسة البازليك"

وهكذا اتخذ الحديث مساراً أخراً كما أراد نعيم وتحدثا عن المعمار و فنونه أثناء تجوالهما حول القصر و داخله مستعرضاً

فؤاد لنعيم أوجه الشبه و الخلاف بين قصره و قصر البارون . وفي الأثناء كانت سوزي بدران في عجابة من أمر نعيم الوزان الذي استطاع أن يكسب مودة رئيسها دون أدنى عناء و انقلب اجتماع العمل إلى زيارة ودية.

-"فؤاد بيه، أنا آسفة للمقاطعة ولكن أنا واثقة أن نعيم بيه بوده أن ينهي موضوع مجلس الإدارة...." حاولت مرة أخرى سوزي أن تعيد دفة الحوار وقد وجدت أن موضوع العمل شبه نسي.

-"نعم صحيح.. شكراً سوزي" قال فؤاد مقاطعاً ثم التفت لنعيم " نعيم أنا مقدر لك مجيئك إلى هنا...دعني أكلم كمال أغلو الليلة ثم أرد عليك غداً. أعدك أني سأحاول أن أصل إلى اتفاق يرضي جميع الأطراف ولكن بشرط أن تشرفني مساء الغد لكي نتناول العشاء على يختي، ولن أقبل التنازل عن ذلك الشرط."

-" لا بأس و لكن كيف أصل إلى اليخت"

-"لا تحمل هم ، سوزي ستمر عليك في الفندق بسيارتها."

قال فؤاد موجهاً الكلام لنعيم و لسوزي التي ابتسمت ابتسامة صفراء نحو نعيم الوزان الذي بدت تشعر اتجاهه بعدم الراحة. "على آخر الزمن أصبحت سائقة خاصة لرجل أعمال سعودي!"

☆ ★ ☆

تذكر نعيم أثناء ذهابه إلى الفندق الأمر الذي طلب من مصطفى نديم، مدير مكتبه، أن ينجزه فأخذ جواله و بدأ في الاتصال.

- "سلام عليكم أبو عبدالله ، أتيت لك بطلبك."

- "ممتاز يا مصطفى كنت واثقاً من ذلك."

- " ولكنك لم تخبرني بأنك تنوي إجراء مقابلة صحفية، كان باستطاعتي ترتيب مؤتمراً صحفياً دون أن تكلف نفسك عناء البحث عن صحفي محدد."

- "عفوًا مصطفى لا أفهم ماذا تقصد." قال نعيم باستغراب.

- "طلعت أحمد نجاتي الذي طلبت مني أن آتي لك بهاتفه إنه صحفي يعمل في جريدة الأحداث، ألا تريده من أجل أن يجري معك مقابلة صحفية على سبيل الدعاية لمشروع الاتصالات؟ "

- " لا، لا أريده من أجل حوار... بل من أجل موضوع آخر تماماً ليس له علاقة بالعمل."

- "عفواً أبو عبدالله... على العموم تفضل رقم جواله "

سجل نعيم رقم الجوال ، وسرعان ما بدأ بالاتصال. رن الجرس عدة مرات ثم كان الرد.

- "ألو"

- "السلام عليكم..أستاذ طلعت نجاتي؟ "سأل نعيم متمنياً

أن يكون هو الشخص المقصود في رسالة الدكتور عبد القادر.

- "نعم..أي خدمة."

- "إسمي نعيم عبدالله الوزان..لا أظنك تعرفني ولكن يبدو أنه بيننا صديق مشترك و قد طلب مني أن أبلغك سلامه."

- "أهلا بك و به ولكن من هو ذلك الصديق؟"

- " الدكتور عبد القادر بنوزّاني."

- " الدكتور عبد القادر بنوزّاني" ردد طلعت باستعجاب ثم أكمل " أتقصد عالم التاريخ الذي تناقلت الصحف خبر وفاته منذ بضعة أيام؟"

- "نعم هو بعينه. كنت في الرباط عندما توفي و قد التقيت به قبلها بيومين، ولكنه في اليوم التالي قبيل و فاته قد أرسل إلي برسالة طلب فيها أن أبعث إليك تحياته."

- " عفوا لكني لا أدري عن ماذا تتحدث فأنا لا تربطني صداقة بالرجل. ربما تقصد شخصاً آخراً." قال طلعت بدهشة كانت واضحة على نبرات صوته.

- " ألست أنت طلعت أحمد نجاتي؟" سأل نعيم

- "نعم هو أنا."

- " إذاً أغلب الظن أنت المقصود." قال نعيم مأكداً ثم أكمل " لماذا لا نلتقي غداً فيبدو أن الأمر أعقد بكثير مما كنت أتصور."

☆ ★ ☆

12

عام 1908

كان حديث الشيخ أبوبكر الحسيني لخليل الوزان بمثابة الماء البارد الذي سكب على رأسه ليفيقه إلى ما يحدث حوله في بقاع الدولة و بالأخص في فلسطين. لم يكن خليل على دراية بكل ما كان يدور من تخطيطات بعض الجماعات اليهودية المسماة بالحركة الصهيونية و لم يسمع قط بالمدعو تيودور هرتزل ، و في ذلك مثله كمثل الكثير من باقي رعاية الدولة. و ما أدهش خليل أنه على الرغم من تعامله مع الكثير من تجار اليهود في اليمن و العراق و مصر و حتى في استانبول إلا أنه لم يسمع أحداً منهم قط يتحدث عن الذهاب إلى فلسطين و الإقامة فيها أو اتخاذها موطناً. فما الذي جد في الموضوع ؟ لو لم يكن على ثقة بحكمة و رجاحة عقل الشيخ أبوبكر الحسيني لقال أنه عجوز يبالغ ، و لكن الشيخ أبو بكر لا يقول إلا ما هو واثق منه. هل هناك مؤامرة تحاك من قبل بعض اليهود لاستنزاع فلسطين من المسلمين؟ أهي حملة صليبية جديدة و لكن سلاحها و عتادها هذه المرة المال و

الخديعة؟ كان يبدو على الشيخ أبوبكر أن مازال عنده ما يريد الإفصاح عنه و لكن الوقت لم يكن مناسبا، هكذا شعر خليل فلم يلح عليه بالكثير من الأسئلة. "هذا عنوان دار أخي..مرني غداً بعد العصر فالحديث معك لا يمل" هكذا انتهى الحوار بينهما في قصر السلطان بعد فروغ الحفل.

ذهب خليل إلى عربته التي كانت في انتظاره في الخارج لتقله إلى قصر الضيافة حتى يستعد لحفل العشاء المقام في قصر طلعت باشا. "الولائم تبدو أنها لا تنقطع في هذه المدينة"

-"عفواً خليل أفندي هل بإمكان يوري بك كوهين أن يركب معكم إلى قصر الضيافة، فلسبب ما سائق عربته قد اختفى؟" سأل مصطفى السالوني محاولاً إنقاذ الموقف المحرج الذي وضع فيه المبعوث عن ولاية انطالية.

-"لا مانع على الإطلاق." قال خليل مرحباً بزميله في مجلس المبعوثان الذي قدر لمصطفى رحابة صدره فصعد العربة قبل أن تنطلق.

-"أشكرك على السماح لي بمصاحبتك إلى قصر الضيافة." قال يوري بك مبدياً امتنانه.

-"لا داعي للشكر فهذه أبسط واجبات الزمالة و العربة كما ترى تتسع لعدة أشخاص."

كان خليل في غاية اللطف مع يوري بك كوهين وفي نفس

الوقت استعجب من هذه المصادفة التي جعلته يتقاسم الطريق مع يهودي و قد سمع للتو عن محاولة بعض اليهود الاستحواذ على فلسطين. شعر خليل برغبة تلح عليه أن يسأل يوري بك إن كان على دراية بالحركة الصهيونية أو إن كان سمع بهرتزل ولكنه امتنع،"هل سيخبرني أنه متواطئ مع تلك الجماعة إن كان كذلك."

-"كيف وجدت اللقاء مع السلطان عبد الحميد الثاني؟" سأل يوري بك فجأة .

-"لا بأس به، و لو أنه بدى لي كما لو كان السلطان مهموماً."

-"لا بد له أن يكون مهموما. فالبلاد كانت على حافة الانهيار لولا تدخل حركة الاتحاد و الترقي." رد يوري بك بشكل مباشر أدهش خليل .

-"و لكن لا تنسى أن السلطان قد ورث وضعاً صعباً و رأى أنه يحاول الإصلاح بقدر المستطاع و نحن في المدينة المنورة بدأنا نتلمس هذا من خلال بعض الأعمال كقطار الحجاز و بعض المدارس التي افتتحت حديثاً، و هاهي الولايات تشارك في صنع القرار من خلال مجلس المبعوثان الذي أقر في عهده."

-"تقصد الذي أقر في عهد حركة الإتحاد و الترقي على

مضض منه. أنتم أهل الحجاز متعاطفون معه لتوجهه الإسلامي و مناداته بالجامعة الإسلامية لربط مسلمي العالم بالخلافة. صدقني يا خليل أفندي هذه مجرد شعارات مفلس يريد توطيد حكمه لا أكثر."

- "يبدو أنك من أنصار الإتحاد و الترقي."

- "أنا و معظم المبعوثين حتى زميلك الشريف يوسف."

أضاف يوري بك ثم صمت ليعطي خليل (الذي بدأ يشعر أن غياب سائق يوري بك ربما لم يكن بالمصادفة) فرصة هضم تلك المعلومة الأخيرة بخصوص المبعوث الثاني عن منطقة الحجاز.

- "يوري بك، هل ترى أن الوقت مناسب من أجل فرض التغييرات السياسية على السلطان وبث عدم الاستقرار و الدولة محاطة بأخطار مطامع بعض الدول كروسيا و بريطانيا؟ ألا ترى كيف بدأت الولايات الأوروبية تنتزع الواحدة تلو الأخرى من الدولة وكذلك بعض ولايات وسط آسيا ؟ بل إني سمعت أن هناك أطماع من البعض في تفتيت الدولة و انتزاع فلسطين."

أضاف خليل "فلسطين" في آخر الجملة ليرى وقعها على يوري بك الذي بدأ يشعر أن خليل ليس بالفريسة السهلة .

- " ومن قال أن الإصلاح لن ينقذ الدولة أو سيهدد

استقرارها، بل العكس هو الصحيح، ثم خليل أفندي أريدك أن تطمئن إلى أن الإتحاد و الترقي لن يقبل بتفتيت الدولة."

وهكذا استمر الحديث بين يوري و خليل متطرقاً إلى جوانب مختلفة من شؤون الدولة حتى اقتربت العربة من القصر. حينها فاجأ يوري خليل بملاحظة غيرت مجرى الحوار الدائر بينهما.

- "أتعلم أن الذي أسس هذا القصر هو نفسه أحد مؤسسي حركة الإتحاد و الترقي."

- " لا لم أكن أعلم. من تقصد؟ " سأل خليل .

- " أقصد طلعت باشا."

- "طلعت باشا الذي دعانا الليلة ؟ "

- "نعم هو، لقد أشرف بنفسه على بناء قصر الضيافة. لذلك ستجد شبهاً كبيراً بينه و بين قصره الذي سنذهب إليه الليلة."

لم يدرك خليل في حينها أن ملاحظة يوري هذه ستكون لها أهميتها و لكن فيما بعد.

☆ ★ ☆

13

استغرب طلعت من تلك المكالمة التي تلقاها البارحة من رجل لا يعرفه يبلغه سلام رجل لم يلتق به من قبل ، ولكنه شعر أن في نبرة صوت ذلك الرجل الذي عرف نفسه بنعيم الوزان مصداقية جعلته يقبل دعوته اليوم بعد صلاة الجمعة في الفندق الذي يسكنه. شعر طلعت بحسه الصحفي الذي لم يخيبه قط أن هنالك أمر ما غريب سيكتشفه عند ملاقاته رجل الأعمال السعودي. لعل ذلك ينسيه أحداث مدينة تورونتو الكندية التي عاد منها قبل أمس. فوفاة موشي جولد منتحرا بعد يوم واحد من لقائهما و الحديث الذي دار بينهما بخصوص جد وزير خارجية إسرائيل كان صدمة لم يتوقع حدوثها. لم يفهم ما الذي يجعل صحفياً ناجحاً محبًا للحياة كموشي أن يقدم على مثل هذا الفعل و خصوصا أنه كان في صدد سبق صحفي يضاف إلى رصيده الحافل بالسوابق الصحفية. "يبدو أن موشي لم يكن سعيداً كما حاول الإظهار أمام الناس"... "زوجته تركته و هربت مع رجل آخر"... "لم يستطع تحمل الصدمة". كل هذه

الأقاويل سمعها طلعت من بعض زملاء موشي بعد وفاته. قيل لطلعت أن الشرطة اكتشفت خطابا من زوجة موشي تخبره بأنها ستهجره لكي تعيش مع من تعشق دون أن تذكر اسم ذلك العشيق و يبدو أن زوجة موشي قد غادرت البلاد فالشرطة لم تعثر لها على أثر. ما كان موشي يستحق هذه المعاملة من زوجته، هكذا شعر طلعت " ولكن هذا حال الدنيا. ما كل ما يشتهيه المرء يدركه و ما كل ما يستحقه يناله." أفكار كثيرة جلست تراود طلعت أثناء سيره من المسجد بعد صلاة الجمعة عبر الشارع الفرعي الهادئ المؤدي إلى العمارة التي يسكنها بحي المهندسين. لم ينقطع سيل الأفكار حتى دخل شقته ووجد زوجته في استقباله بعد فروغها من الصلاة.

-"تقبل الله."

-"منا ومنكم."

-" ماذا قررت؟ هل ستذهب إلى ذلك الرجل..نسيت اسمه...في الفندق؟"

-" اسمه نعيم الوزان..نعم قررت أن أقابله و أرى ماذا يريد... هل لديك رأيا آخر؟" سأل طلعت زوجته سلوى.

-" لا، بل أوافقك الرأي ولو أن حكاية الدكتور عبد القادر هذه غريبة. كيف يرفض الرجل مقابلتك أثناء حياته ثم يبعث

إليك بالسلام قبيل وفاته؟" سألت سلوى باستغراب واضح دون حاجة لانتظار الجواب.

-"لا أدري... هذا ما يحيرني."

☆ ★ ☆

جلس نعيم في بهو الفندق في انتظار طلعت أحمد نجاتي، ذلك الرجل الذي لم يسمع به سوى من تلك الرسالة الغريبة التي تلقاها من الدكتور عبد القادر. راود نعيم هاجس أن يكون هذا الشخص ليس هو المقصود بالسلام وربما يكون المقصود شخصاً آخر يدعى طلعت أحمد نجاتي، و لكن مصطفى لم يأت له سوى بهذا الشخص. "ربما مصطفى لم يكلف نفسه عناء البحث عن غيره بمن يحمل نفس الاسم. لقد قال الرجل أنه ليست بينه و بين الدكتور عبد القادر سابق معرفة."

رأى نعيم أنه لا بأس من لقاء هذا الرجل و التحدث معه، فإن لم يكن المقصود فلعله يعرف أشخاصاً آخرين ممن يحملون نفس الاسم. في هذه الأثناء دخل رجل نحيف متوسط القامة في عقده الرابع الفندق و أخذ يلتفت في كل اتجاه كأنه يبحث عن شخص. لم يكن نعيم متأكداً إن كان هو طلعت و لكنه أشار إليه فأقبل الرجل.

-"السلام عليكم.. أستاذ نعيم الوزان؟" سأل طلعت .

-"و عليكم السلام ، لا بد أنك الأستاذ طلعت أحمد نجاتي." رد نعيم مصافحاً الرجل.

-"نعم..أصدقك القول أني استغربت من مكالمتك البارحة و جلست طوال اليوم أفكر في الموضوع لدرجة أن زوجتي بدأت تشاركني التفكير." قال طلعت و هو يجلس.

-"آسف إن كنت تسببت لك في حيرة، ولكن الحقيقة أنا نفسي لا أفهم ما الذي يحدث. فلقد تلقيت تلك الرسالة دون أن أتوقعها تماماً، بل أن نص الرسالة ككل غير مفهوم و كنت مؤملاً حين خابرتك على الهاتف و بلغتك سلام الدكتور عبد القادر أن تضيف بعض الضوء على المقصود من الرسالة ، ولكن يبدو أن المسألة قد ازدادت غموضاً."

-"في الحقيقة أنا كما أخبرتك البارحة لا تربطني صلة بالدكتور عبد القادر سوى أنني منذ سنة حاولت إجراء مقابلة صحفية معه على أثر تحقيق كنت أجريه و لكنه رفض بحجة انشغاله."

-" أي تحقيق هذا ؟" سأل نعيم .

-" تحقيق كنت قد أجريته منذ عام عن علاقة المركز العربى للبحوث و الدراسات ببعض الجهات الخارجية و عن طرق تمويله."

تذكر نعيم في الحين ذلك الرجل الذي زار الدكتور عبد القادر في تلك الليلة و الذي أخبره عن وفاة زميل لهما في المعهد العربي للبحوث و الدراسات أو "المعبد" كما أطلق عليه الدكتور عبد القادر. "أيمكن أن تكون هذه مصادفة؟" فكر نعيم ثم تذكر ما كان يقوله له والده بأن الصدفة هي تبرير الجاهل لما لا يفقه.

-" و هل نشر ذلك التحقيق؟ "

-"مع الأسف لا . فقد خافت الصحيفة من المقاضاة. ولكن لماذا السؤال؟ هل تعتقد أن هناك علاقة؟ "

-"أستاذ طلعت ، أنا لست ممن يستسهلون تفسير بعض الأحداث بالمصادفة. فلذلك لا أجد جواباً عن سؤالك سوى بنعم. هناك علاقة و لكني لا أفهمها. و بما أنك بشكل أو بآخر قد أصبحت طرفاً في الموضوع، سأخبرك بما حدث منذ مقابلتي للدكتور عبد القادر."

أخبر نعيم طلعت عن زيارته للدكتور عبد القادر و عن ذلك الزائر الذي علم من الدكتور أنه رئيس قسم التاريخ "بالمعبد" والذي أخبره عن الزميل الذي توفي. أخبره عن القلق الذي بدا ظاهراً على و جه الدكتور عبد القادر بعدما غادر الرجل. أخبره أيضاً عن محاولته الاتصال به دون جدوى في اليوم التالي ثم

كيف اكتشف جثته اليوم التالي حتى وصل إلى نص الرسالة التي قادته إلى البحث عن طلعت أحمد نجاتي.

-"يا لها من أحداث." قال طلعت و هو في ذهول مما سمع من أحداث أقرب للأفلام البوليسية. ثم أكمل "و أنت تعتقد أن تلك الرسالة التي بعثها إليك لها علاقة بزيارة رئيس قسم التاريخ وربما بالتحقيق الذي أجريته منذ عام حيث كان الدكتور عبد القادر عضواً في مجلس إدارة المركز العربي للبحوث و الدراسات و أحد مؤسسيه ؟"

- "ربما. و لو أني أشعر أن المسألة أبعد من ذلك."

-"إذاً فلنبدأ بمقابلة رئيس قسم التاريخ لعله يضيف بعض الضوء على المسألة." قال طلعت ثم أضاف. "يبدو أن التحقيق الذي أجريته منذ عام لم يكتمل بعد."

☆ ★ ☆

14

اتفق نعيم مع طلعت على أن يذهب الأخير في الغد لزيارة مدير قسم التاريخ بالمركز العربي للبحوث و الدراسات و يرى ما يستطيع الحصول عليه من معلومات قد تفيد في فهم رسالة الدكتور عبد القادر. كانت الأمور تزداد غموضاً بالنسبة لنعيم لدرجة أنه بدأ يفكر في الأمر أكثر من تفكيره في السبب الأساسي الذي ذهب به إلى المغرب ثم أتى به إلى مصر ولكن حضور سوزي بدران في المساء إلى الفندق لكي تأخذه إلى يخت فؤاد شوكت قد أعاد تذكيره بالعمل.

استقل نعيم سيارة سوزي التي لم تبد سعيدة بالمهمة التي كلفها إياها رئيسها و قد شعر نعيم بذلك.

-"أنا آسف على التعب، كان بالإمكان أن يعطيني السيد فؤاد العنوان و كنت سآتي مع السائق."

-"أبداً لا يوجد تعب ، أنا أسكن قريباً من هنا." ردت سوزي باستحياء وقد شعرت أن نعيم لاحظ استياءها.

-"يبدو أن السيد فؤاد يثق بك كثيراً."

- "عفوا؟" ردت سوزي بشيء من الإستغراب.

- " أقصد اجتماع البارحة.. لقد كنت قاسماً أساسياً فيه."

-"أنا أعمل مع فؤاد بيه منذ أن تخرجت من الجامعة . أنا حاصلة على الماجستير في إدارة الأعمال تخصص تسويق و أيضاً تخصص إدارة دولية من "هارفرد بزنس سكول" وكفاءتي ونشاطي في العمل هما اللذان أوصلاه إلى الثقة بي." ردت سوزي بثقة و وضوح .

-"أنا أحترم فيك الوضوح و المباشرة ، و هذا تلمسته أمس من النقاش الذي دار. كما أني تلمست عدم استئناسك كثيراً من النقاش الجانبي الذي دار بيني و بين السيد فؤاد بخصوص قصره."

-"أنا شخصياً أفضل أن يكون حديث العمل فقط في العمل. و لكني فهمت أنك كنت تحاول كسب ثقة و مودة فؤاد بيه و يبدو أنك قد نجحت." قالت سوزي بابتسامة ماكرة فهم نعيم مغزاها.

- "من المهم للشخص أن يعرف مع من يتحدث ، ميول الإنسان في الجوانب المختلفة من الحياة تضفي الكثير على معرفة شخصيته و كيفية التحدث معه من أجل توصيل الفكرة.

ألا ترين معي أن أحد أكبر مشاكلنا في العالم أننا لا نجيد فهم بعضنا البعض؟"

-"ربما.." أجابت سوزي بتردد.

-"كل منا يريد أن يكون هو المتحدث فلا يعطي نفسه فرصة لسماع الآخر كما يريد أن يكون هو دائمًا المنتصر فلا يعطي فرصة للآخر لكسب أي شيء و هذا ما يؤدي إلى الخلاف و النتيجة أن الجميع يخسر."

- "نعيم بيه ، تسمح لي أن أسألك سؤالاً شخصيًا"

- "تفضلي"

- "كيف استطعت أن تصل إلى ما وصلت إليه في هذا السن المبكر؟" سألت سوزي بشيء من الحرج . ابتسم نعيم من هذا السؤال ثم قال :

- "لقد ورثت بعض المال عن أبي و لكنها لم تكن ثروة طائلة فقررت أن أستثمر ذلك المبلغ في إنشاء شركة مقرها في أمريكا تعرض عبر الإنترنت المشغولات المحلية و بعض التحف النادرة في دول العالم الثالث. نجحت الشركة فقمنا أنا وشركائي بإدراجها في سوق الأسهم الأمريكية " الناسداك " و كان ذلك في أواخر التسعينات في عز فقاعة شركات الإنترنت فتضاعف سعر سهم الشركة في غضون سنتين عشرات المرات قبل أن تنفجر الفقاعة."

- "و هل خسرت كثيراً ؟ " سألت سوزي .

- " لا لقد بعت أغلب حصتي في الشركة قبيل الإنهيار. "

- "حظك جميل. "

-"لا لم يكن للحظ دخلاً في الموضوع ، لقد بعت أغلب حصتي في الشركة لأن السعر الذي وصل إليه السهم كان مبالغاً جداً إلى درجة لا يمكن أن يبرر، كان الإنهيار مسألة وقت بالنسبة لي و بالفعل قد حدث فرجعت و اشتريت نفس الحصة التي بعتها بعشر الثمن والباقي من المال استثمرته في أسواق الخليج و بالأخص في عقار دبي و سوق الأسهم السعودي و في مجال الإتصالات." ما إن فرغ نعيم من جملته الأخيرة حتى لفت انتباهه المقهى الشهير " الهرم الذهبي" على جانب الطريق فخطر على باله سؤال فلعله يكون عند سوزي الإجابة.

- "الآن جاء دوري في السؤال. "

- "تفضل " قالت سوزي مبتسمة.

- " هل تعرفين من الذي يملك هذه السلسلة من المقاهي؟" سأل نعيم مشيراً إلى الهرم الذهبي الذي مرت السيارة بجانبه.

- " تقصد "الهرم الذهبي" إنها من أشهر سلسلة المقاهي في مصر، الشركة الأم مغربية ولكن فؤاد بيه يمتلك حصة فيها. "

- "فؤاد شوكت؟" سأل نعيم مندهشا .

- " نعم "

- " و من هم باقي الشركاء؟ "

- "في الحقيقة لا أعلم. أنا عملي مع فؤاد بيه فقط في إطار شركة بنية الإتصالات أما تفاصيل باقي استثماراته فلا علم لي بها . " أنهت سوزي الجملة ثم بدأت تنخفض سرعة السيارة لتقف بجوار مرسى أنيق على ضفاف النيل في نهايته يخت أقرب إلى سفينة متوسطة الحجم بها عدد كبير من الناس و ينبعث منها صوت فرقة تعزف مقطوعات من الموسيقى الكلاسيكية الخفيفة.

- "ما هذا ؟ " سأل نعيم .

- "لقد وصلنا. هذا هو اليخت. " ردت سوزي و ابتسامة ماكرة تعلو وجهها .

- "ظننت أني سألتقي مع السيد فؤاد على العشاء لنكمل موضوع البارحة. "

- "فؤاد بيه لم يشأ أن يخبرك أن الليلة حفل عيد ميلاده حتى لا تكلف نفسك عناء شراء الهدية. "

نظر نعيم إلى سوزي ثم إلى اليخت الصاخب بالناس و المضاء بالزينة و الأنوار فقال بصوت خافت لا يكاد يسمع : " لو أني دريت أن المسألة هكذا لما كلفت نفسي عناء المجيء "

☆ ★ ☆

كان اليخت ممتلئاً بالضيوف من رجال أعمال ووزراء وفنانين و مثقفين. البعض أتى برفقة زوجته و البعض الآخر أتى برفقة صديق أو صديقة. كان فؤاد شوكت يجوب اليخت ليطمئن على ضيوفه و كذلك كانت تفعل زوجته. أما في الطرف الآخر من اليخت كانت قد دخلت سوزي برفقة نعيم و بدأت تعرفه ببعض الحضور. لفت انتباه نعيم كثرة الفنانين والإعلاميين في الحفل ولكنه عرف بعد ذلك من سوزي أن فؤاد شوكت يمتلك شركة إنتاج فني و أنه قد أنتج عدداً من الأفلام و المسلسلات العربية بل أنه استعجب عندما علم أنه شريك في إحدى المحطات الفضائية المختصة في الأغاني الحديثة و التي كان الإقبال عليها يتزايد بشكل كبير بين الشباب لما تبثه من أغان فيها الكثير من العري. كان نعيم واضحاً في تحفظه على تلك القناة الفضائية و ما تبثه لدرجة إثارة حفيظة بعض الحضور الذين لم تعجبهم تلك الآراء المحافظة.

-"أنتم السعوديون تمتلكون أغلب تلك الفضائيات التي لا تعجبك." كان قول البعض و كأنهم يشيرون إلى أن المسؤول الحقيقي عن تلك الفضائيات هم رجال أعمال ذلك المجتمع المحافظ الذي يمثله نعيم.

-" الشباب اليوم في العالم العربي أصبح منفتحاً على العالم ، و ما تبثه الفضائيات هو فن يعبر عن إيقاع الجيل وحياته اليومية فلم ذلك التشدد و الحجر على رغباتهم." كان قول البعض الآخر الذي لم يجد غضاضة مما يبث على تلك الفضائيات.

-" أنا ضد تلك الفضائيات ، سواء كانت تمول بأموال خليجية أو بغيرها. المبدأ عندي واحد" كان رد نعيم. " **لا بد أن نفرق بين الفن و بين الإسفاف. و إذا كان الفن يتعارض مع تعاليم الدين فهو مرفوض، ومن قال أن الفن لا ينبغي أن يكون له حدود.**"

-"ومن الذي يضع تلك الحدود؟ رجال الدين؟ "

حاول نعيم شرح أنه يتحدث عن بعض الثوابت الشرعية التي لا يختلف عليها أحد كالعري و الإسفاف. و لكنه وجد أن من الحضور من لا يؤمن بتلك الثوابت. و البعض كان يؤمن بأن الحرية هي قيمة مطلقة و ليس من حق أحد أن يمنع الآخر من التعبير عن نفسه لأن في ذلك حجب لحريته. بدأ الحوار يفقد موضوعيته خصوصاً بعدما رفض بعض المتحاورين مبدأ التحجج بالقيم الدينية لأنها لم ترق لهم.

-" الدين لا ينبغي أن يكون عائقاً أمام حرية الإبداع و إلا رجع بنا إلى عصور الظلام." قالت الراقصة الشهيرة. "ثم من قال أن الرقص حرام، أليس الرقص عملاً، و العمل عبادة؟"

-" تفسير الدين هو أمر شخصي..فأنا أفسر الدين على حسب فهمي و لكل منا مطلق الحرية في تفسير الدين على حسب فهمه و قناعته... و لا يجوز لأحد أن يرغمني على تقبل تفسيره هو للدين." قال الكاتب و الشاعر المعروف. " **الحرية هي القيمة المطلقة.**"

ابتسم نعيم وتذكر في تلك اللحظة قول جدته نقلاً عن جده خليل " **الحرية هي هبة الله لعباده و ليست حقاً لهم عليه.**"

لم يمتلك نعيم في تلك اللحظة سوى الترحم على روح جده خليل.

☆ ★ ☆

15

عام 1908

لاحظ خليل الوزان عند دخوله قصر طلعت باشا الشبه الواضح بينه و بين قصر الضيافة تماماً كما قال يوري بك كوهين. لا شك أن القصرين صمما من قبل شخص واحد قد تأثر بالمعمار الأوروبي المزوج ببعض اللمسات التركية. كانت أرضية المدخل مصفوفة بأجود أنواع الرخام المفروش بسجاجيد أصفهان المصنوعة من الحرير، أما الأسقف فكانت مزينة بمنقوشات جبسية مطلية بماء الذهب لا يضاهيها جمالاً سوى الثريا المصنوعة من الكريستال الخالص.

-" طلعت باشا يعشق البناء و المعمار." قال يوري بك لخليل الذي فوجئ بتعليقه كما لو كان يراقب نظراته و تأملاته للقصر.

" أنت لم تقابل طلعت باشا من قبل أليس كذلك؟ "

-" لا لم ألتق به و لم أسمع به قبل مجيئي إلى استانبول." قال خليل الذي بدأ يشعر أن يوري بك يحاول التقرب منه ربما من أجل ضمه لكتلة الإتحاد و الترقي في مجلس المبعوثان.

- "أنا أعرفه جيداً.. يجب أن أعرفك عليه فهو من أكثر الساسة نفوذاً اليوم ولاأستبعد أن يصبح الصدر الأعظم عما قريب خصوصاً إذا تولى الحكم سلطان جديد."

- "ماذا تقصد ؟" سأل خليل .

- " السلطان عبد الحميد الثاني لا يحب أهل سالونيك، فهو يعتبرهم أهل فتن، لذلك قاوم بشدة تعيينه صدراً أعظماً بالرغم من كل الضغوطات." أجاب يوري بك ثم نظر إلى رجل أشقر في العقد الخامس كان يتحدث مع رجل آخر في أحد أركان المجلس ثم دخلا إلى قاعة مجاورة فقال " هاهو طلعت باشا."

- "تقصد الرجل الأشقر الذي كان يتحدث مع محمد جاويد باشا؟" سأل خليل .

- " نعم هو، لقد دخلا إلى قاعة المكتب " قال يوري بك ثم بدأ بالاتجاه نحو الباب الذي خرج منه الرجلين من قاعة الاستقبال. " تعال معي سأعرفك على طلعت باشا."

- " لماذا لا ننتظر حتى يحضر إلى قاعة الاستقبال فربما يريد التحدث مع محمد جاويد باشا على انفراد."

- "الآن أفضل وقت للتعرف و التحدث إليه بعيداً عن باقي الحضور."

استمر يوري بك نحو الباب المؤدي إلى قاعة المكتب

مصطحباً معه خليل حتى وصلا إلى الباب ثم طرق عليه يوري بك ثلاث طرقات فدخل و معه خليل.

- "مساء الخير. أنا آسف طلعت باشا على اقتحام خلوتك مع محمد جاويد باشا ولكني أردت أن أسلم عليك وأعرفك بخليل أفندي الوزان أحد مبعوثي ولاية الحجاز بعيداً عن زحمة الضيوف."

- "مساء الخير يوري بك ، أهلاً بك و بخليل أفندي، أنت تعلم أنك لا تحتاج إلى استئذان." قال طلعت باشا مرحباً.

- "مساء الخير خليل أفندي ، كنت أتحدث قبل قليل مع الشريف يوسف و سألته عنك، حسبتك لن تأتي الليلة." قال محمد جاويد باشا و هو يشعل سيجاراً ثم أضاف مخاطباً طلعت باشا " خليل أفندي من الأصدقاء المقربين لكاظم باشا." شعر خليل أن محمد جاويد باشا لم يقصد الثناء بجملته الأخيرة.

- "كيف حال كاظم باشا ؟ أمازال حاد الطباع؟ " سأل طلعت باشا .

- "كاظم باشا رجل لا يخشى في قول الحق لومة لائم، لذلك يبدو للبعض حاد الطباع." رد خليل.

- "ألم أقل لك أنه من أصدقائه المقربين."

- "يعجبني الرجل الوفي لأصدقائه فالوفاء من شيم

الكرام" قال طلعت باشا رداً على تعليق محمد جاويد باشا ثم أضاف " خليل أفندي، أخبرني عن أهل المدينة المنورة و نظرتكم لحال الدولة."

-"أهالي المدينة ممنونون للاهتمام الذي رعاهم به السلطان أخيراً ولو أن هذا الاهتمام قد جاء بعد طول انتظار. فهل يعقل أن تكون مدينة الرسول ﷺ ومهد الدولة الإسلامية بهذا الحال ، حيث يعاني الأهالي من الفقر و الجهل. و الحقيقة أني وجدت أن أغلب الحواضر العربية تعاني من الإهمال بخلاف حواضر الأناضول."

-"خليل أفندي، الدولة تعاني من الضعف و الفساد كما أن سلاطين آل عثمان أصبحوا غير قادرين و غير مؤهلين للحكم. انظر كيف يذبح السلطان إخوته من الرجال صغيرهم و كبيرهم عندما يتقلد الحكم، و الورع منهم يكتفي فقط بسجنهم كما فعل عبد الحميد الثاني. ماذا تتوقع من سلطان لا يراعي سلطة الدم؟ كيف تتوقع منه أن يرأف برعيته و هو الذي لم يرأف بإخوته؟ العالم يتغير و يتطور، نحن الآن في القرن العشرين و الديمقراطية هي التي يجب أن تحكم الشعوب لا الاستبداد."

-"طلعت باشا، أغلب المسلمين يفضلون لو أن شرع الله هو

الذي يحكم لما فيه من عدل و رحمة."

-"خليل أفندي ، الشريعة لا تستطيع مواكبة التطور الحضاري الذي نعيشه ثم ما ذنب غير المسلمين أن يحكمهم الإسلام؟" قال طلعت باشا مقاطعاً خليل الوزان.

-" و ما ذنب المسلمين أن يحكموا بغير الشريعة؟ و لكني أتحدث عن شريعة يسمح فيها لاجتهاد العلماء؟ العيب ليس في الإسلام و لكن العيب في العلماء الذين لم يواكبوا تطور الزمان و المكان. بدلاً من أن نأتي ببضاعة غيرنا و نقحمها علينا لماذا لا نجرب أولاً أن نطور بضاعتنا بما يتناسب مع العصر بدلاً من أن نلقي بها على قارعة الطريق؟"

لم يعجب الحديث محمد جاويد باشا الذي أخذ ينفخ في سيجاره بغيظ ثم استأذن طلعت باشا و انصرف من قاعة المكتب. أما يوري بك فقد جلس صامتاً طوال الوقت يستمع إلى الحوار الدائر بين طلعت باشا و خليل الوزان باهتمام واضح.

-"خليل أفندي من الواضح أنك رجل متعلم و مطلع، سيكون وجودك في مجلس "المبعوثان" مصدر ثراء له."

-"أشكرك يا باشا و أنا سعيد بمعرفتك و حوارك."

بدأ طلعت باشا بالتحرك نحو الباب و معه يوري بك كوهين و خليل الوزان الذي فجأة توقف أمام مجسم انتبه له حين

تحرك من أمامه طلعت باشا الذي كان يواريه بجسده الضخم. كان نفس المجسم الهرمي الذي يتوسطه نحت على شكل عين إنسان و الذي رآه في مكتبة قصر الضيافة و كانت العين تنظر إلى حائط به مدفأة حطب كما في قصر الضيافة. "أيعقل أن يكون وجه الشبه بين القصرين إلى هذا الحد" تساءل خليل في خاطره.

-"ما الخطب خليل أفندي؟" سأل طلعت باشا الذي لاحظ توقف خليل.

-"هذا المجسم الهرمي، رأيت مثله في قصر الضيافة، بل يكاد يكون هو نفسه."

-"نعم إنه جميل أليس كذلك؟ الهرم هو رمز قدرة الإنسان على التشييد و البناء، بعض المؤرخين اعتقدوا خطأ أن العبيد هم الذين بنوا أهرامات الجيزة... ولكن العبيد خليل أفندي لا يبنون الحضارات، أوليس كذلك؟"

-"نعم أتفق معك أن **الإنسان الحر هو الأقدر على العطاء.**"

-"ألا تتفق معي أيضا أن الحرية هي قيمة مقدسة تعلو فوق كل القيم؟"

-"طلعت باشا القداسة لله، و الحرية هي هبة منه لعباده

و ليست حقاً لهم عليه." لم يعجب ذلك الرد طلعت باشا الذي بدأ يتحرك مجدداً نحو الباب مصطحباً معه يوري و خليل الذي توقف مرة أخرى و نظر نحو المجسم الهرمي الذي يتوسط القاعة. هذه المرة لفت انتباهه العين المنحوتة و التي تطل على حائط ذي مدفأة حطب كالتي في قصر الضيافة.

-"ما الخطب الآن خليل أفندي؟" سأل طلعت باشا و قد بدأ ينفذ صبره من ملاحظات خليل الغير مرغوبة.

-"أي اتجاه ذلك الحائط الذي تنظر إليه العين المنحوتة في المجسم؟"

-"ماذا؟ لا أفهم قصدك"

-"خليل أفندي ما أهمية هذا السؤال؟" سأل يوري بك الذي كان صامتاً طوال الوقت مستمعاً و مستمتعاً بالحوار الدائر بين خليل الوزان و طلعت باشا الذي كان قد وضح عليه التوتر جراء ملاحظات خليل.

-"ستعرفا سبب سؤالي و لكن بعد أن أتلقى الجواب."

ظل طلعت باشا صامتا لا يعرف بماذا يجيب خليل. في تلك الأثناء نظر يوري بك حوله ثم أجاب خليل أنه يعتقد أن الحائط يقع على الأرجح في اتجاه جنوب الشرق.

-"غريب"

- "ما الغريب خليل أفندي؟" سأل طلعت باشا .

- "هذا نفس الاتجاه الذي تنظر إليه العين في مجسم قصر الضيافة."

- "يالها من صدفة لا أعتقد أنها تعني الكثير. هيا بنا يا حضرات لا بد أن نخرج للضيوف." قال طلعت باشا و هو يتجه نحو الباب دون توقف مصاحباً معه يوري و خليل الذي كان يتمتم في سره "صدفة ؟" ثم تذكر قول الشيخ أبو بكر الحسيني بأن الصدفة هي تبرير الجاهل لما لا يفقه ، و لكنه شعر أن كلمة " تبرير الجاهل" لا تنطبق على طلعت باشا.

☆ ★ ☆

16

لم تشعر سلوى الشافعي بالارتياح لما سمعت من زوجها طلعت. فقد أدركت أن حس زوجها الصحفي هو الذي يقوده الآن و يدفعه لمساعدة رجل الأعمال السعودي نعيم الوزان في معرفة الحقيقة و كم من مرة دفع ذلك الحس الصحفي طلعت إلى المشاكل نتيجة غضب المسؤولين منه لتدخله فيما لايعنيه حسب وجهة نظرهم، ولكن طلعت كان يعتقد أن أي أمر من الشأن العام يعنيه كما يعني أي صحفي يبحث عن الحقيقة، **فالحقيقة ملك للناس و لا يمكن إخفاؤها.** تذكرت سلوى أول لقائها بطلعت منذ سبع سنين عندما قررت ارتداء الحجاب فمنعها مدير القناة الفضائية التي تعمل بها كمقدمة للأخبار من الظهور على الشاشة و تقديم الأخبار أو أي برنامج. سمع طلعت عن الموضوع و أجرى تحقيقا صحفيا هز الرأي العام مما شكل إحراجاً كبيراً على القناة الفضائية التي منعت إحدى المذيعات من ممارسة حقها في ارتداء الحجاب فتراجعت القناة عن قرارها و لكن طلعت خسر فرصة تقديم برنامج حواري كان

يتفاوض مع القناة على تقديمه. كانت فرصة كبيرة لطلعت من أجل الظهور على شاشة التلفاز و الحصول على أجر مغر ولكنه لم يأبه و غامر بمصلحته من أجل قول الحق و الدفاع عن مبدئه. كان ذلك الموقف الشجاع و النبيل من قبل طلعت كفيلاً بأن يجعل سلوى تدرك أن هذا هو الرجل الذي تريد الإرتباط به و لم تندم يوماً على ذلك القرار.

-"طلعت ، لم لا يذهب نعيم لمقابلة مدير قسم التاريخ فهو صاحب الشأن."

-"المسألة أصبحت تخصني كما تخصه ، فهناك سبب لذكر الدكتور عبد القادر إسمي في الرسالة. حسي الصحفي يقول لي أن المسألة ليست مجرد حادث انتحار، هناك في الأمر شيء و لا بد أن أعرفه."

-"حسك الصحفي هذا هو الذي يوقعك في كثير من المشاكل. ألم تتعظ مما جرى لك في هولندا قبل أشهر قليلة ؟ وقبلها بعدة أشهر كانت سترفع عليك دعوى قضائية من قبل نفس المركز الذي تنوي الذهاب إليه اليوم للتحقيق الذي نشرته عنهم و لولا تدخل نقيب الصحفيين لوصل الأمر إلى القضاء."

-"لا تقلقي فالمسألة الآن بسيطة. سأذهب لمقابلة رئيس قسم التاريخ الذي زار الدكتور عبد القادر قبيل وفاته و أسأله

إن كان سمع من الدكتور عبد القادر أثناء لقائهما ما قد يفسر سبب انتحاره. لست ذاهباً من أجل اتهامه أو اتهام المركز بأي شيء." قال طلعت مطمئنا زوجته.

-"أتمنى أن تكون المسألة بهذه البساطة... حدسي يخبرني أنها لن تكون كذلك."

☆ ★ ☆

يقع المركز العربي للبحوث و الدراسات في حي المعادي الهادئ، المشهور بفلله و قصوره الراقية، على خلاف كثير من المؤسسات المدنية. المكان كان في الأصل قصرا سكنياً تبرع به صاحبه للمركز ليكون مقراً له. كالعادة كان المركز محاطاً بحراس الأمن ولا يسمح لأحد بالدخول من دون موعد مسبق يوافق عليه مدير المركز الدكتور زكريا السيد. كان طلعت نجاتي على علم بذلك عندما قدم إلى المركز ولكنه كعادته لم يأبه، فمنذ متى منعته النظم من تأدية أية مهمة.

-"ممنوع، بدون موعد لا أستطيع السماح لك بالدخول." قال أحد الحراس لطلعت الذي كان مصراً على مقابلة مدير قسم التاريخ.

-"أحتاج إلى موعد لمقابلة موظف بمؤسسة مدنية تعمل في مجال الفكر و الثقافة ؟ يا أخي أنا لست قادماً لسفارة من أجل الحصول على تأشيرة."

-"قلت لك لدي أوامر لا أستطيع. أنت تضيع وقتك ووقتي."

-"و كيف أحصل على الموعد؟ "

-"اتصل على رقم المركز الرئيسي. هل تريد الرقم؟ "

-"لا داعي فعندي الرقم."

بدأ طلعت بالاتصال على الرقم المسجل لديه في هاتفه الجوال فرد عليه صوت رجل مرحباً.

-"أنا اسمي طلعت أحمد نجاتي صحفي بجريدة الأحداث، أود مقابلة مدير قسم التاريخ لأمر ضروري لا يحتمل التأجيل."

-" لا بد من أخذ موعد." رد موظف الإستقبال

-"متى أقرب موعد ؟"

-" لا أدري. تستطيع أن تترك رقم هاتفك و سنرد عليك في خلال أيام."

-" أقول لك أنا في الخارج و أريد مقابلته لأمر لا يحتمل التأجيل."

-"آسف و لكن هذا نظامنا."

-" إذًا حولني عليه أود محادثته."

-"آسف لا أستطيع."

-"ماذا..هل أحتاج إلى موعد أيضاً من أجل أن أخاطبه على الهاتف؟ " سأل طلعت بنبرة غضب.

-"لا و لكن الدكتور عزمي مدير قسم التاريخ مشغول و لا يود استقبال أية مكالمة."

-"هل تستطيع إذاً إخبار الدكتور زكريا السيد مدير المركز بأنني أود مقابلته هو شخصياً اليوم."

-"قلت لك لا بد من..."

-"أخبره بأن لدي معلومات جديدة بخصوص حادثة انتحار الدكتور عبد القادر بنوزّاني أنوي نشرها غداً بجريدة الأحداث." قال طلعت بنبرة حازمة

-" لحظة من فضلك."

كانت جملة طلعت الأخيرة بخصوص الدكتور عبد القادر لها وقعة شديدة على موظف الإستقبال ، و كأنما كانت كلمة سر ينتظرها ، فلم تمض سوى دقيقة حتى اقترب الحارس من طلعت الذي كان بالقرب ينتظر ، فأخبره بأن الدكتور زكريا السيد مدير المركز سيقابله.

اصطحب حارس الأمن طلعت إلى الداخل حيث كان رجل عرف نفسه بسكرتير الدكتور زكريا في استقباله. لم ينطق الرجل بكلمة و هو يقوده إلى مكتب المدير في الدور الثاني من المبنى الجميل الذي كان لا يزال يحافظ على جماله و رونقه منذ أن كان قصراً يسكنه صاحبه قبل أن يتبرع به للمركز العربي للبحوث و الدراسات منذ قرابة العشرون عاماً.

- " تفضل ، الدكتور زكريا في انتظارك." قال السكرتير مشيراً لطلعت بالدخول.

☆ ★ ☆

استقبل طلعت في الداخل رجلاً قصير القامة خفيف الشعر يقارب الستين من عمره ، تعرف عليه طلعت على الفور حيث كان ضيفاً على الكثير من البرامج الحوارية بحكم مركزه و مكانته الثقافية في المجتمع العربي ككل. كان هذا أول لقاء بينهما بالرغم من التقرير الذي نشره طلعت عن المركز منذ عام ، و الذي أثار ضجة كبيرة في الأوساط الثقافية بعد أول حلقة من الخمس حلقات التي كان ينوي طلعت نشرها قبل أن يمنعه رئيس التحرير على أثر دعوة قضائية من المركز ضد طلعت و الصحيفة.

- " أستاذ طلعت. لم أتوقع منك زيارة بعد محاولتك لنشر تلك الافتراءات عن المركز." قال الدكتور زكريا غير مرحب بطلعت.

- " في الواقع أنا لم آت من أجل هذا الأمر." رد طلعت بعد أن دعى نفسه للجلوس غير مكترث بعدم ترحيب الدكتور زكريا.

- "أخبرني سكرتيري أنك تريد مقابلتي بخصوص خبر ستنشره حول انتحار الدكتور عبد القادر."

- "نعم، لقد علمت أن مدير قسم التاريخ في المركز قد زار الدكتور عبد القادر قبيل وفاته بيومين." صمت طلعت بعد جملته ليرى وقع الخبر على الدكتور زكريا.

- "الدكتور عزمي؟ مستحيل فالرجل لم يسافر منذ عدة أشهر. حتى زيارته التي كانت مقررة إلى منتدى الفكر في بيروت اضطر إلى إلغائها بسبب تعيينه مديراً لقسم التاريخ بدلا من الدكتور أحمد عبد الوارث."

- "عفواً، هل قلت أن الدكتور عزمي عين قريباً مديراً لقسم التاريخ ؟" سأل طلعت الذي شعر لوهلة أن الدكتور عزمي قد لا يكون هو ذلك الزائر المجهول .

- "نعم لقد عين الإثنين الماضي بعد وفاة الدكتور أحمد." ثم بعد لحظة تأمل ، قال الدكتور زكريا و قد نفذ صبره.

"أستاذ طلعت لماذا أنت هنا ؟ ما الذي تريده ؟ بدأت أشك أن يكون لديك أية معلومات عن انتحار الدكتور عبد القادر."

- "و ماذا عن الدكتور أحمد ألم يكن في المغرب قريباً؟ "

- "أستاذ طلعت الزيارة انتهت." نادى الدكتور زكريا سكرتيره و طلب منه اصطحاب طلعت إلى الخارج.

شعر طلعت أن الدكتور زكريا يخبئ أمراً ما و لكن لا

يدري ما هو، فما الذي جعله يستقبله حالما ذكر اسم الدكتور عبد القادر و أن لديه معلومات جديدة عن وفاته، ثم إنهاء المقابلة بهذا الشكل السريع بعدما سأله عن الدكتور أحمد عبد الوارث. "هل الشخص الذي زار الدكتور عبد القادر هو أحمد عبد الوارث؟" أخذ يفكر طلعت. "المشكلة أن نعيم لا يعرف اسم الزائر. كل ما أخبره الدكتور عبد القادر فقط أنه مدير قسم التاريخ بالمعبد." ازدادت المسألة تعقيداً بالنسبة لطلعت. فالدكتور عزمي لم يصبح مديراً لقسم التاريخ سوى الإثنين الماضي أي بعد وفاة الدكتور عبد القادر، إذاً لا يمكن أن يكون هو الشخص المقصود. لا بد أن يكون المقصود إذاً هو الدكتور أحمد عبد الوارث الذي توفى على حد قول الدكتور زكريا.

-" لو سمحت." قال طلعت متحدثا للسكرتير الذي كان يصطحبه إلى الخارج. "متى توفي الدكتور أحمد؟"

-"عفواً؟"

-" الدكتور أحمد عبد الوارث رئيس قسم التاريخ السابق، متى توفي؟"

-"الأحد الماضي"

-"الأحد الماضي" ردد طلعت بدهشة. "نفس اليوم الذي توفى فيه الدكتور عبد القادر...ياللمصادفة!"

☆ ★ ☆

17

كان نعيم يتناول وجبة الغداء في مطعم الفندق و عينه على الجوال ينتظر مكالمتين. مكالمة من طلعت ليخبره عن الذي جرى في المركز العربي للبحوث و الدراسات، و مكالمة من فؤاد شوكت ليخبره عما توصل إليه مع كمال أغلو. كانت الدقيقة تمر على نعيم و كأنها دهراً، لذلك عندما رن الجوال أسرع في الرد دون أن يرى اسم المتصل على الشاشة .

-"السلام عليكم أبو عبدالله ، بشر ما الذي جرى في اجتماع البارحة مع فؤاد شوكت؟" كان صوت شريكه سعد العثمان يحادثه.

-"و عليكم السلام...وعدني بأنه سيتحدث مع كمال أغلو و يحاول أن يتوصل إلى حل معه يرضي جميع الأطراف ، و لا زلت أنتظر منه مكالمة."

-"إذاً كلمني حينما يأتيك خبر."

-"إن شاء الله..بالمناسبة ، هل سمعت بسلسلة من المقاهي تسمى الهرم الذهبي؟"

- "نعم رأيتها في بيروت عندما كنت هناك منذ أسبوعين. لماذا السؤال هل تفكر في أخذ وكالتها؟"

- "لا..فقط لفت انتباهي سرعة انتشارها في عدة دول عربية. لقد اكتشفت البارحة أن فؤاد شوكت هو أحد الشركاء و لكن الشريك الأساسي مغربي ولكني لا أعرف من هو ظننتك قد تعرف."

- "فؤاد شوكت شريك في عدة شركات حول العالم فالرجل ملياردير. و لكن ما سر الاهتمام؟"

- "هناك أمر ما لا أدري ما هو لفت انتباهي إلى هذه السلسلة من المقاهي، ولكني أريد أن أعرف أولا من هم باقي الشركاء."

- "هذه مسألة بسيطة. سأطلب من مصطفى أن يأتي لك بكل ما يخص هذا الأمر."

كان شعور نعيم نحو "الهرم الذهبي" كشعور المسافر المتجه إلى المطار و هو يظن أنه نسي شيئاً ولكن لا يدري ما هو. وكعادته إذا صادف مثل هذا الشعور يصفي نعيم ذهنه من الموضوع الذي يشغله و يفكر في أمر آخر. كان الحل يقدم نفسه عاجلاً أم آجلاً.

بدأ نعيم يراجع الرسالة التي بعثها إليه الدكتور عبد القادر مرة أخرى:

عزيزي نعيم

لقد سعدت بلقائك البارحة فقد كانت أمسية جميلة قضيتها في حوار معك لا يمل.

لا أدري إن كنا سنلتقي مجدداً أم لا. فهناك الكثير من المواضيع التي كنت أود التحدث فيها معك ولكن يبدو أنه لا نصيب لي في ذلك.

في الختام أقرئك السلام.

تحياتي إلى طلعت أحمد نجاتي.

و رحم الله جدك خليل 256-2-114/2

عبد القادر بنوزّاني 8-2-114/2

بدت الرسالة لنعيم كما لو أنها أنهيت على عجل. فالبداية كانت مكونة من جمل طويلة و النهاية كانت جملها قصيرة ومقتضبة. هل كان الدكتور عبد القادر يفكر في الانتحار عندما كتب الرسالة؟ ماذا كان يقصد بعدم درايته إن كانا سيلتقيا مجدداً أم لا؟ فهذه الجملة لا تدل على أن صاحبها ينوي الانتحار إلا إذا كان قد قرر الانتحار بعد كتابة الرسالة. كان نعيم يحاول أن يقرأ ما بين السطور متسائلاً إن كان هناك أمر غير واضح حاول الدكتور عبد القادر أن يقوله لنعيم في هذه الرسالة. ولكن إن كان هناك أمر ما لم لَم يكتبه مباشرة دون تلميح؟ ثم ما

القصد من السلام على طلعت نجاتي؟ فلا الدكتور عبد القادر ولا هو قد التقيا بطلعت من قبل ، بل إنه لم يسمع بالاسم قبل قراءة الرسالة ؟ ظل نعيم يفكر في أمر الرسالة حتى رن جواله و انتبه هذه المرة إلى اسم المتصل الظاهر على الشاشة، كان طلعت .

- " نعيم، أين أنت؟ " سأل طلعت بصوت مضطرب.

- " أنا في مطعم الفندق، هل حصلت على شيء؟ "

- "ربما... فالأمر قد زادني حيرة... لا أدري و لكن عندي شعور أن المسألة أخطر بكثير مما كنا نتوقع! "

☆ ★ ☆

18

عام 1908

بالرغم من أنه لم يمض على قدوم خليل إلى إستانبول سوى يومين إلا أنه قد أدرك في هذين اليومين أن هناك محاولة حثيثة من حركة الإتحاد و الترقي، التي أصبحت حزباً سياسياً يسيطر على الكثير من أمور الدولة، على ضم أكبر عدد من أعضاء مجلس المبعوثان إلى صفوفهم. كان ذلك واضحاً له من خلال كلام يوري بك له و تعريفه على طلعت باشا و الحديث الذي دار في الحفل الليلة. و ما أقلق خليل أيضا الهوة التي بدأت تتضح له بين الحزب و بين السلطان مما جعله يشعر بأن شيئاً ما يحوم في الأجواء لا ينبئ بخير.

ظل خليل يفكر في الأمر و هو يتجول في حديقة قصر الضيافة بعد مجيئه من حفل طلعت باشا مستعرضاً أحداث يومه. أقلقه حديث الشيخ أبوبكر بخصوص محاولة بعض اليهود استيطان فلسطين و شرائها من الدولة، و على الرغم من رفض السلطان عبد الحميد هذا العرض إلا أنه كان لايزال للحديث بقية على حد قول الشيخ أبوبكر. "ياترى ما الذي كان يقصده" أخذ

خليل يفكر. لم يشأ الشيخ أبوبكر الإسهاب في الحديث عندما التقيا في قصر الدولمة بهجة و لكنه وعده بأنه سيشرح له الأمر غداً في بيت أخيه. شعر خليل أنه لا يملك في هذه اللحظة سوى الصبر حتى يلتقيا غداً. بعدها بدأ خليل يستعرض ما حدث في حفل طلعت باشا و ظلت صورة ذلك المجسم الهرمي لا تفارق خياله. هو نفسه بجميع تفاصيل المجسم الموجود في مكتبة قصر الضيافة. " لماذا العين كانت تنظر إلى اتجاه الجنوب الشرقي؟ ما ذا يوجد في هذا الاتجاه؟ " أول ما خطر على بال خليل هو ذلك الباب المخفي في الحائط. "هل يا ترى يوجد نفس الباب في قصر طلعت باشا؟ ".

اتخذ خليل قراراً على أن يحاول كشف سر ما وراء ذلك الباب. المشكلة كانت تكمن في كيفية فتح الباب خصوصاً بعدما حاول الليلة الماضية بشتى الطرق دون جدوى. لم يكن أمام خليل سوى طريقة واحدة. فعزم أمره و بدأ بالتوجه نحو الداخل.

اتجه خليل نحو جناحه بعد أن سلم على بعض الموجودين في بهو القصر. لم يكن المكان مزدحماً فغالبية النزلاء قد توجهوا إلى أجنحتهم. تظاهر خليل بأنه قد نعس هو الآخر و تعمد أن يحدث بعض الأصوات و هو يدخل جناحه. كانت الساعة نحو الحادية عشر مساء. انتظر خليل إلى بعد منتصف

الليل ثم فتح باب جناحه برفق دون إحداث صوت، ثم توجه نحو الدور الأرضي حيث المكتبة. لم يصادف أحداً أثناء سيره حتى وصل. فتح الباب برفق ثم دخل المكتبة الخالية فقفل الباب. كانت هناك أريكة كبيرة في أحد أطراف القاعة توجه نحوها ثم تفحصها جيداً فوجدها مناسبة للغرض الذي أراده. ذهب خليل إلى خلف الأريكة و تخبأ بعد أن ضمن أنه لن يكون مكشوفاً من هذا المكان، ثم انتظر. مرت نحو ساعتين ولم يأت أحد و خليل لم يتحرك من موقعه و قد بدأ يغلبه النعاس. بدأت تغفو عيناه ، و في إحدى هذه الغفوات تنبه فجأة إلى ضوء بهو القصر ينبعث نحو المكتبة المظلمة على أثر فتح الباب.

دخل رجل لم يستطع خليل أن يتبين ملامحه. بدأ الرجل بالاتجاه نحو المجسم الهرمي في منتصف القاعة. و عندما وصل، انحنى نحو قاعدة الهرم فأخرج شيئاً لم يتبينه خليل ثم وضعه في منتصف الهرم حيث توجد العين و في نفس اللحظة أخذ ينفتح الباب السري. أعاد الرجل الشيء الذي وضعه في عين الهرم إلى مكانه ثم توجه نحو الباب السري و بعدما اختفى بعدة ثوان أغلق الباب و نجحت خطة خليل.

☆ ★ ☆

قام خليل من وراء الأريكة بعد مضي بضع دقائق ثم

اتجه نحو باب المكتبة و فتحه ببطء ليتأكد أنه لا يوجد أحد قادم ثم اتجه نحو الهرم. نظر إلى القاعدة و أخذ يبحث عن ذلك الشيء الذي وضعه الرجل في العين. ظل يبحث في قاعدة الهرم حتى وجد مزلاجاً صغيراً لا يكاد يرى ، ففتحه و إذا به يكشف عن فتحة صغيرة بها مفتاح على شكل العين المحفورة في وسط المجسم فأخذه ووضعه في تجويفة العين فانفتح الباب السري. بدأ خليل بالاتجاه نحو الباب ثم تذكر المفتاح. " الرجل وضع المفتاح في مكانه، لا بد لي أن أفعل نفس الشيء." بعدما و ضع المفتاح في مكانه و أغلق المزلاج، اتجه نحو الباب السري و دخل من خلاله إلى حجرة مضاءة ببعض المصابيح لا تتجاوز مساحتها ثلاثة أمتار في ثلاثة. وفي أحد أركانها درج يتجه نحو الأسفل. نظر خليل حوله فوجد بقرب أحد المصابيح مزلاجاً أمسك به فإذا بالباب يقفل. بعد ذلك توجه بحذر نحو الدرج الذي أدى به إلى نفق مضاء على جوانبه بالمصابيح . مشى خليل في النفق مسافة ميل قبل أن يتفرع إلى عدة اتجاهات. نظر حوله نحو الإتجاهات المختلفة و التي كانت تتشابه فلعله يجد علامة تدله على الإتجاه الذي يجب أن يسلكه فلم يجد.

"إلى أين تؤدي هذه الأنفاق يا ترى؟" أخذ خليل يفكر ثم قرر أن يختار أحد الأنفاق المتفرعة و يمشي فيها ، وما كاد يفعل

حتى انتبه إلى آثار الأقدام في أرضية النفق، كانت كلها تتجه في نفس الإتجاه. "كلها تتجه نحو النفق الجنوب شرقي، الاتجاه الذي تنظر إليه العين."

لاحظ خليل في نهاية النفق بعدما مشى مسافة نصف ميل وجود باب كبير في أعلاه رسمة هرم في وسطه عين و فوق قمة الهرم نجمة خماسية. " لا بد أن يكون هذا هو المقصد. و لكن ماذا يوجد خلف الباب يا ترى؟ " تساءل خليل و هو يحاول أن يجد تفسيراً منطقيًا لما يشاهد. " باب سري... نفق يؤدي إلى باب آخر... آثار أقدام...ما هذا؟ "

لم يدم تفكير خليل طويلاً فسرعان ما سمع صوت خطوات متجهة نحوه من النفق. على الفور أخذ يبحث حوله عن مكان لكي يتوارى فيه حتى لا ينكشف أمره. ذهب إلى ركن يعلوه مصباح فأطفأه ليجعل ذلك الركن مظلماً بحيث يمكنه الاختباء. انتظر خليل دقائق قليلة ثم ظهر صاحب الخطوات. كان رجلاً لم يره من قبل. أقبل من النفق بخطوات ثابتة متجهاً نحو الباب الذي طرق عليه ثلاث طرقات.

- " من الطارق ؟ " أتاه صوت من الداخل .
- " رفيق يبحث عن الحكمة. "
- " أي حكمة؟ "

-"حكمة المعلم الأكبر."

ثم فتح الباب و دخل الرجل و خليل ينظر إلى ما يحدث بدهشة دون أن يعي ما الذي يجري. ظل يفكر قليلاً في خطوته القادمة، هل يرجع إلى القصر و يخبر ما رأى لأحد المسؤولين؟ ولكن في من يثق في هذه الأجواء الغريبة ؟ انتظر خليل بضع دقائق يفكر جلياً في الأمر ثم اتخذ قراره و ذهب إلى الباب.

-" من الطارق " جاء الصوت من الداخل.

-"رفيق يبحث عن الحكمة."

-"أي حكمة؟"

-"حكمة المعلم الأكبر."

فتح الباب و دخل خليل إلى بهو كبير و كأنه مدخل كنيسة من كنائس القرون الوسطى ذات أسقف عالية و أعمدة منقوشة من الحجر. لم يكن في البهو أحد معه سوى الحارس الذي ظل صامتاً لا ينبس بحرف. نظر خليل حوله لعله يكتشف إلى أين يجب أن يتجه، فوجد باباً في نهاية البهو يشبه كثيرًا الباب الذي دخل منه فاتجه إليه. فتح الباب برفق و هو لا يدري ما الذي ينتظره في الجانب الآخر. لم يفكر في هذه اللحظة في أي خطر محتمل يمكن أن يواجهه، فالفضول كان هو الشعور المتغلب في تلك اللحظة. فتح الباب فوجد خلفه غرفة متوسطة الحجم

خالية سوى من درج عريض متجه إلى الأعلى. بخطوات متأنية اتجه خليل نحو الدرج ثم بدأ يطلع عليه نحو الطابق الأعلى. مع كل خطوة كان يسمع فيها صوتاً جهوراً يخطب لمجموعة من الناس الذين يتمتمون كما لو بالموافقة على ما يسمعون. لم يتبين لخليل ما الذي يقوله الرجل فأكمل صعوده بحذر لعله يسمع أفضل. استمر على هذا الحال حتى وصل إلى أعلى الدرج و لم يحل بينه و بين الجمع سوى باب عريض يشبه الذي سبقه. أدرك خليل أن هذه آخر نقطة يستطيع الوصول إليها إذا أراد ألا يغامر على كشف أمره، فوضع أذنه على الباب و أخذ يتنصت إلى حديث الرجل. لم تمر سوى ثوان حتى أدرك خليل أن ما يتحدث به هذا الرجل هي لغة غير مألوفة لديه لم يسمع بها من قبل ولكنها قريبة من العربية. ظل الرجل يتحدث و كلما ردد كلمتين معينتين كان الجمهور يهتف. تكررت هاتان الكلمتان عدة مرات حتى حفظهما خليل و بعد مضي عشر دقائق شعر خليل أنه يجب أن يغادر المكان قبل أن ينكشف أمره.

رجع خليل من الطريق الذي أتى منه متجهاً نحو باب النفق. شعر بشيء من القلق من الحارس الذي سوف يلاحظ سرعة خروجه من المكان و هو الذي لم يحضر سوى منذ عشر دقائق و لكن لم يكن لديه خيار آخر. بدأ يفكر فيما يقوله للحارس

إذا سأله عن سبب خروجه المبكر فأخذ يستعرض الحجج حتى وصل إلى الباب و لم يستقر على حجة معقولة. "من حسن الحظ أنه رجل واحد، لن يستطيع التغلب علي بمفرده، إذا بدأ يصوب بندقيته نحوي فسأهجم عليه." أخذ يفكر خليل و قد بدا يسمع صوت خطوات خلفه متجهة نحو الدرج. اقترب من الباب فأخذ الحارس يتجه هو الآخر نحو الباب. "هل يريد منعي من الخروج؟" تساءل خليل حتى جاءته الإجابة عندما وصل إلى الباب ووجد الحارس يفتحه له. خرج خليل و ما أن قفل الباب خلفه حتى أخذ يسرع نحو قصر الضيافة.

لم يدرك خليل مدى تهور ما فعل إلا عندما رجع إلى جناحه و أخذ يفكر في مجريات ما حدث. كان من الممكن أن ينكشف أمره في أية لحظة لولا ستر الله، عندها لا يدري ما الذي كانت ستفعله تلك الجماعة فيه، فمن الواضح أنهم كانوا حريصين على سرية لقائهم لدرجة كبيرة. "ولكن من هي تلك الجماعة؟" بدأ السؤال يلح على ذهن خليل ، ثم تذكر تلك الكلمتين اللتين كانا يكررهما الخطيب فتعلو الهتافات.

"حيرام أبيف"

☆ ★ ☆

19

حضر طلعت إلى مطعم الفندق حيث كان نعيم و قد بدا عليه الشغف بشكل جعل نعيم يشعر أنه ربما قد وجد شيئاً مثيراً يضفي الضوء على رسالة الدكتور عبد القادر.

- "يبدو أنك توصلت إلى شيء." قال نعيم بلهفة.
- "بل إلى أشياء. نعيم المسألة أكبر بكثير مما كنت تتوقع.. ولكن لا يصلح الحديث هنا."
- "نستطيع الذهاب إلى جناحي. و لكن ما الخطب لقد أثرت فضولي."
- "سأخبرك كل شيء و لكن ليس هنا. لا أريد أن يسمعنا أحد." قال طلعت و هو ينظر حوله كما لو كان يخشى أن يكون مراقباً.

قاد نعيم طلعت نحو جناحه المكون من غرفة نوم و صالة جلوس منفصلة و هو يسابق الثواني و الخطوات حتى يصل ويستمع إلى ما توصل إليه طلعت من أمر كبير على حد قوله.

- "ها قد وصلنا، هل يمكن أن تخبرني الآن إلى ماذا توصلت." قال نعيم و قد ملأه الفضول.

- "نعيم، هل تذكر اسم الرجل الذي زار الدكتور عبد القادر في تلك الليلة؟"

- "قلت لك لم يخبرني سوى أنه مدير قسم التاريخ بالمعبد."

- "المعبد؟" تساءل طلعت.

- "هكذا تساءلت أنا الآخر، ولكنه أوضح بعد ذلك قصده بالمركز العربي للبحوث و الدراسات...الحروف الأولى من الإسم."

- "غريب...لم أسمع أحد يطلق عليه ذلك الاختصار... على أية حال لا أعتقد أن المدير الحالي هو المقصود، فهو لم يستلم المنصب سوى الإثنين الماضي."

- "بعد وفاة الدكتور عبد القادر بيوم." ردد نعيم متفقا مع طلعت. "و لكن ماذا عن المدير السابق؟"

- "هنا بيت القصيد...لقد توفى الدكتور أحمد عبد الوارث قبلها بيوم."

- "ماذا؟" تساءل نعيم بدهشة.

- "ليس هذا فقط، الأغرب من ذلك هي الطريقة التي مات بها. لقد وجد مشنوقًا في منزله." هنا كانت دهشة نعيم قد وصلت إلى ذروتها.

- "نفس اليوم و نفس الطريقة التي مات بها الدكتور عبد القادر." ردد نعيم.

- "أنا لا أعتقد أن ذلك كان اليوم العالمي لانتحار المؤرخين... نعيم أن ينتحر عالما تاريخ في نفس اليوم ذلك أمر مريب. و لكن أن ينتحر ثلاثة على صلة بطريقة غير مباشرة في نفس اليوم فذلك أمر خطير يجعلني أعيد تقييم الأمور كلها." قال طلعت بنبرة جادة.

- "ثلاثة؟ تقصد إثنان."

- "بل ثلاثة..عندما كنت في مدينة تورونتو الكندية لتغطية مؤتمر الدول الثمانية كنت قد التقيت بصديق قديم يدعى موشي جولد. أخبرني عن أمر أدهشه كان قد اكتشفه صدفة يخص جد موفاز حائيم وزير خارجية إسرائيل. الشاهد في الموضوع أن موشي وجد منتحراً في منزله مساء السبت."

- "مساء السبت بتوقيت تورونتو..صباح الأحد في المغرب و مصر." ردد نعيم الذي بدأ يدرك سر دهشة طلعت. "ولكن ما علاقة موت صديقك بالدكتور عبد القادر و مدير قسم التاريخ؟"

- "لست متأكداً بعد ولكن لا يمكن أن تكون المسألة مجرد صدفة. الثلاثة لهم علاقة ببعض بطريقة مباشرة أو غير مباشرة... نعيم ، الأمر أعقد بكثير مما تخيلت."

ساد الصمت المكان و نعيم يفكر في ما سمع من طلعت محاولاً أن يجد لنفسه تفسيراً لما حدث و لكن دون جدوى. الأمر كان أعقد من أن يكون مجرد مصادفة، و لكن ما الذي يجعل ثلاثة أشخاص في بقاع مختلفة من العالم يقدمون على الإنتحار في نفس الوقت تقريباً ؟ ألح السؤال نفسه على نعيم دون أن يجد له إجابة منطقية ترضيه فأخذ يسترجع مرة أخرى ذكريات ذلك اللقاء الأخير مع الدكتور عبد القادر. حدثه عن الكتاب الذي أعد له عن أواخر عهد الخلافة العثمانية و علاقتها بالإتحاد والترقي. كان الحماس يغمره و هو يتحدث عما سيحتويه الكتاب ثم ذكر له جده خليل و فاجأه بأنه كان في مجلس المبعوثان في أواخر عهد السلطان عبد الحميد الثاني.

كان الدكتور عبد القادر يتمتع بوهجه المعتاد إلى أن عاد من لقاء ذلك الزائر. "مدير قسم التاريخ بالمعبد" كان ذلك كل ما قاله عن ذلك الرجل الذي أخبره بنبأ وفاة أحد زملائه .

- "طلعت، هل تدري إن كان قد توفى أحد العاملين بالمركز العربي للبحوث و الدراسات منذ أسبوعين أو أكثر قليلا.؟"

- "أستطيع أن أسأل لك، ولكن بماذا تفكر؟"

- "هناك حلقة مفقودة في الموضوع و أشعر أن الحلقة لها علاقة بذلك الرجل الذي زار الدكتور عبد القادر و الخبر الذي

أبلغه إياه. ما لا أفهمه إن كان الزائر هو أحمد عبد الوارث فمتى عاد إلى القاهرة و لماذا انتحر هو الآخر. ألا ترى معي أن الفترة الزمنية كانت ضيقة ؟"

نظر طلعت إلى نعيم و هو يتأمل سؤاله. نعيم على حق، الرجل زار الدكتور عبد القادر مساء السبت في الرباط ثم وجد مشنوقاً فجر الأحد في منزله بالقاهرة. هل يعقل أنه في غضون يوم واحد رجع إلى القاهرة ثم قرر الإنتحار. و هل الذي ينوي الإنتحار يسافر لمقابلة زميل له و يخبره بوفاة زميل آخر؟

- "هل تقصد أن الذي زار الدكتور عبد القادر ليس أحمد عبد الوارث؟ ولكنك قلت أن الزائر كان مدير قسم التاريخ."

- "هذا ما قاله لي الدكتور عبد القادر، ولكن ربما كان يقصد شخصاً آخراً."

- "أو ربما كان يريدك أن تعتقد أنه هو الدكتور أحمد عبد الوارث." قفز طلعت من مكانه مع جملته الأخيرة وقد بدى الوهج في عينيه كأنه اكتشف سراً من أسرار الكون. "نعيم أنا ذاهب لمقابلة زوجة أحمد عبد الوارث، هل تريد الذهاب معي؟"

- "الآن دون موعد ؟ " تساءل نعيم الذي لم يفهم سر الحماس المفاجئ لطلعت.

-"سأكلمها عبر الجوال و نحن في الطريق ، ولكن عندي إحساس أن ما ستنبؤنا به سوف يكشف جانباً من هذا الغموض."

☆ ★ ☆

-"هل يمكن لك أن تخبرني فيما تفكر؟" سأل نعيم طلعت الذي فرغ من مكالمة السيدة كوثر المحلاوي.

-"نعيم ، ماذا لو كان الدكتور عبد القادر دبر لقاءك بي و أرادنا أن نقابل الدكتور أحمد عبد الوارث لأمر ما؟" سأل طلعت و هو يقود سيارته عبر شوارع القاهرة متجهاً نحو منزل كوثر المحلاوي.

-"لا أفهم ماذا تريد أن تقول. حديثك أصبح مليئاً بالطلاسم تماماً مثل رسالة الدكتور عبد القادر. هل يمكن لك أن تخبرني بوضوح ما الذي تريده من زوجة أحمد عبد الوارث."

- "أريد أن أكشف طلاسم رسالة الدكتور عبد القادر، هل تريدني أن أكون أوضح من ذلك؟ نعيم ، الدكتور عبد القادر أراد أن يخبرك أمراً ولكن بطريقة غير مباشرة. شيء قد جرى مباشرة قبل وفاته مما جعله يرغب في البوح لك بأمر ما على عجل. و لكن يبدو أنه كان متخوفاً من أن ينكشف ذلك الأمر الذي أراد البوح لك به."

-"طلعت ، عن ماذا تتحدث؟ نحن لسنا في فيلم بوليسي."

- "تأمل جيداً ما حدث منذ زيارة ذلك الرجل للدكتور عبد القادر."

- "أحمد عبد الوارث مدير قسم التاريخ."

-"لا أدري إن كان هو نفسه ذلك الزائر، و لكنه حتماً الرجل المقصود."

-"عدت للطلاسم." قال نعيم مظهراً عدم فهمه لما يلمح له طلعت.

-"نعيم ، لا تنظر إلى الأمور بنظرة ضيقة و إلا ستبدو لك و كأنها طلاسم. كن على استعداد لتقبل جميع الإحتمالات مهما بدت غريبة و غير معقولة. و الآن فلنعد إلى تأمل الأحداث بعد زيارة ذلك الرجل. الدكتور عبد القادر على حد قولك أصبح مضطرباً شاحب الوجه بعدما كان مليئاً بالحماس و هو يحدثك عن آخر مشاريعه الكتابية. و في اليوم التالي تحاول الاتصال به فلا تجده و لا يرد على مكالماتك. تذهب إلى منزله في اليوم الذي يليه فتجده مشنوقاً. و في نفس اليوم بل في نفس الساعة تقريباً ينتحر كل من الدكتور أحمد عبد الوارث مدير قسم التاريخ الذي أشار الدكتور عبد القادر أنه الزائر دون ذكر اسمه صراحة و موشي جولد الذي كان متحمساً هو الآخر لاكتشافه أمراً ما يخص جد وزير خارجية إسرائيل. بعد ذلك تكتشف

أنت رسالة غريبة غير مفهومة بعثها إليك الدكتور عبد القادر قبل وفاته بيوم من ضمن محتوياتها ذكر لاسمي و أنا الذي لم ألتق به من قبل ، بل إن صلتي الوحيدة به هو أنني حاولت إجراء مقابلة معه منذ سنة بخصوص تحقيق كنت قد أجريته حول المركز العربي للبحوث و الدراسات بصفته أحد المؤسسين وقد رفض هو إجراء الحوار. ألست معي أن هذه الأحداث لها صلة بتلك الزيارة الغريبة ؟ "

-"إذاً أنت تشك في أن يكون أحمد عبد الوارث هو ذلك الزائر، و تعتقد أن الدكتور عبد القادر ذكر المركز العربي للبحوث و الدراسات و مدير قسم التاريخ لأنه أراد الإشارة إليهما لأمر ما."

-"تماماً مثلما أشار إلي في رسالته. يبدو أن الدكتور عبد القادر قد شعر بدنو أجله فأراد أن يوصل إليك رسالة لا يفهمها أحد غيرك." فزع نعيم من جملة طلعت الأخيرة، فقد أدرك إلى ماذا كان يشير بكلامه.

-"تقصد أن الدكتور عبد القادر ربما لم يمت منتحراً ؟ "

-"نعم، ماذا لو أن الدكتور عبد القادر و الدكتور أحمد وموشي جولد جميعهم قتلوا و لم ينتحروا ! "

أدرك نعيم في هذه اللحظة أن الأمور قد بدأت تأخذ مساراً آخراً!

☆ ★ ☆

20

على الرغم من دهشتها فلم تمانع كوثر المحلاوي من طلب طلعت أحمد نجاتي الصحفي الذي قرأت له الكثير من التحقيقات المثيرة والذي طلب مقابلتها لأمر هام يخص زوجها المنتحر. لم تمانع كثيراً السيدة كوثر من مقابلة طلعت أو أي شخص يستطيع أن يضفي شيئاً من ضوء على السبب الذي جعل زوجها يقدم على الإنتحار. كانت تريد من يخبرها بأن خلافها الأخير معه لم يكن هو السبب و أنها لو لم تترك المنزل غاضبة لما جرى ما جرى. كانت تريد من يخلصها من ذلك الشعور المرير بالذنب. ولكن ما علاقة زوجها بطلعت ، فعلى حد علمها لم تربطهما سابق معرفة.

اتجهت كوثر نحو الباب بعد سماعها رنين الجرس ، "لا بد أنه طلعت نجاتي."

-"السلام عليكم، البقية في حياتك...أنا شاكر لك الموافقة على مقابلتي أنا و رفيقي نعيم الوزان في هذه الظروف الصعبة التي تمرين بها." قال طلعت لكوثر بعد أن فتحت له الباب وعرف بنفسه و بنعيم .

-"حياتك الباقية..تفضل."

دخل طلعت و نعيم إلى صالة الضيوف وراء كوثر المحلاوي وقد بدى عليها التماسك بالرغم من الحزن الواضح في عينيها. شعر نعيم بحرج شديد و هو يدخل الشقة ليقتحم خلوة امرأة قد توفى زوجها منذ أسبوع فقط ولكن تأويل طلعت للأحداث جعله يريد أن يصل إلى الحقيقة ولو تسبب ذلك في بعض الحرج.

-"سيدة كوثر...لن نطيل عليك نحن نقدر الظروف التي تمرين بها، ولكن سبب مجيئنا هو أن السيد نعيم الوزان كان يبحث عن زوجك لأمر يخص صديقاً مشتركاً بينهما و فوجئنا اليوم بخبر وفاة الدكتور أحمد."

نظرت كوثر إلى نعيم ثم بادرت بالسؤال .

-"من هو ذلك الصديق المشترك؟"

-"في الحقيقة أنا لا أريد أن أثقل عليك ولكن." شعر نعيم بحرج شديد و هو لا يعرف كيف يبدأ بالسؤال عن زيارة الدكتور أحمد للدكتور عبد القادر في الرباط. "هل سمعت بالدكتور عبد القادر بنوزّاني؟"

-"بالطبع هو من أصدقاء أحمد المقربين. كانا دائماً على اتصال حتى زيارتهم إلى المدينة المنورة منذ نحو شهر ثم انقطع الاتصال... ولكن ما سر الاهتمام بعلاقة أحمد بالدكتور عبد القادر فأنت لست أول من يستفسر عن هذه العلاقة."

-"عفواً..هل قلت أن المرحوم زار المدينة مع الدكتور عبد القادر منذ شهر؟" تساءل نعيم بدهشة ثم نظر إلى طلعت الذي كان يتأمل الحديث و آثر الصمت.

-"نعم كانا يبحثان موضوع كتاب مشترك عن شيء يخص المدينة، هكذا قال لي أحمد."

-"قلت أن الاتصال انقطع منذ شهر...ألم يذهب زوجك إلى المغرب قريباً."

-"لا ، أحمد لم يسافر إلى المغرب قط. بل أن آخر سفرة له كانت رحلته تلك إلى المدينة."

كانت دهشة نعيم في ذروتها لما سمعه من كوثر المحلاوي. إذًا لم يكن الدكتور أحمد عبد الوارث هو ذلك الزائر و لكن لِمَ أخبره الدكتور عبد القادر أن الزائر هو مدير قسم التاريخ بالمركز العربي للبحوث و الدراسات إذا لم يكن هو.

صمت نعيم برهة ليستوعب ما قد سمع و أخذ طلعت يستكمل الحديث.

-"سيدة كوثر هل تذكرين الموضوع الذي كانا يبحثانه في المدينة المنورة."

-"لقد ذكر لي أحمد مرة الموضوع ولكني نسيته ، هو موضوع غريب لم أسمع به من قبل قال أنه يتعلق بهجرة أهل

المدينة و مجاعة في زمن الأتراك...سفر...لا أذكر."

-"سفربرلك." قال نعيم مدركاً إلى ماذا تشير كوثر.

-"نعم هو ذاك سفربرلك." قالت كوثر ثم نظرت إلى طلعت " أستاذ طلعت، لقد فهمتني عند محادثتك لي أن لديك معلومات جديدة عن وفاة زوجي ولذلك وافقت على المقابلة و أنا في هذه الظروف الصعبة. و لولا تقديري لك كصحفي متميز ويحترم كلمته لما استقبلتك أنت و رفيقك اليوم. أرجوك إن كان عندك شيء فأريد سماعه. هل كان أحمد يعاني من مشاكل في العمل؟ هل خلا في معه في الفترة الأخيرة زاد الضغط عليه فلم يحتمل؟ أرجوك أريد أن أفهم لماذا فعل ما فعل." ثم أجهشت في البكاء غير متمالكة نفسها.

-"سيدة كوثر، لا تحملي نفسك ما لا ذنب لك فيه. أنت غير مسؤولة عما حدث. قد لا يكون عندي لك الجواب الشافي عن تساؤلاتك و لكني أعدك أنني حينما أصل إلى الحقيقة ستكونين أنت أول العارفين."

-"أشكرك، ولكن منظر أحمد حينما دخلت إلى المنزل ووجدته في المكتب...المنظر لا يفارق خيالي...ذلك الرداء الأبيض و صدره المكشوف.."

-"عفواً سيدة كوثر." فجأة قاطع نعيم كوثر وهي تصف الحال الذي وجدت زوجها عليه. "هل وجدت الدكتور أحمد

مشنوقاً في مكتبه مرتدياً رداءًا أبيضاً مكشوف الصدر و الساق الأيسر؟"

-"كيف عرفت أن ساقه الأيسر كان مكشوفًا ؟ أنا لم أذكر ذلك." قالت كوثر بدهشة. في نفس الحين نظر طلعت إلى نعيم مندهشاً هو الآخر من أين جاء بتلك المعلومة الدقيقة.

-"سيدة كوثر أنا آسف على إزعاجك و لكن أعتقد أننا يجب أن ننصرف و نتركك لكي ترتاحي." ما أن أكمل نعيم جملته حتى قام و اتجه نحو الباب مصطحباً معه طلعت الذي بدأت دهشته تزيد ليس من موقف نعيم فقط و لكن من الوصف الذي كانت عليه جثة الدكتور أحمد المشنوقة... الرداء الأبيض... الصدر والساق الأيسر المكشوفان... ذلك الوصف قد مر عليه من قبل." مستحيل! إنه نفس الوصف!"

ذكر طلعت وصف الحالة التي وجدت عليها جثة الدكتور أحمد عبد الوارث، بتحقيق قد أجراه منذ بضع سنين عن جماعة هي من أكثر الجماعات سرية في العالم. جماعة ما كان ليخطر على باله أن تكون لها علاقة فيما يحدث!

☆ ★ ☆

21

في ضاحية من ضواحي لندن، دخلت سيارة جاكوار إلى قصر كبير محاط بأرض شاسعة لا يوجد بالمقربة منه أي بنيان. توقفت السيارة و خرج منها رجل ذو ملامح شرقية دخل القصر و أخذ يتجه نحو قاعة مطلة على الحديقة الخلفية. كان في القاعة صاحب القصر يتمتع بشاي بعد الظهر مع قطعة من الكعك الإنجليزي.

-"هل استقرت الأمور؟" سأل صاحب القصر الرجل ذو الملامح الشرقية.

-"نعم ، ولكن هناك مشكلة بسيطة... لقد فلتت رسالة ما كان ينبغي لها أن تفلت عبر البريد الإلكتروني الخاص بعبد القادر بنوزّاني."

-"كيف حدث هذا ؟ ألم تكن التعليمات واضحة؟" سأل صاحب القصر بحزم.

-"بلا، و لكن المراقب لم ينتبه لأهمية الرسالة و حسبها مجرد.."

-"ما نص الرسالة ؟ " سأل صاحب القصر مقاطعاً.

أخرج الرجل من جيبه حاسباً آلياً كفياً و أخذ يقرأ منها:

-" عزيزي نعيم...لقد سعدت بلقائك البارحة فقد كانت أمسية جميلة قضيتها في حوار معك لا يمل...

لا أدري إن كنا سنلتقي مجدداً أم لا، فهناك الكثير من المواضيع التي كنت أود التحدث فيها معك ولكن يبدو أنه لا نصيب لي في ذلك....في الختام أقرئك السلام ...تحياتي إلى طلعت أحمد نجاتي ...و رحم الله جدك خليل 256- 114/2....

عبد القادر بنوزّاني 8- 114/2"

-" لمن أرسلت هذه الرسالة ؟ "

-"لرجل أعمال سعودي يدعى نعيم عبدالله خليل الوزان، تربطه صلة صداقة مع عبدالقادر بنوزّاني منذ أن كان يدرس في جامعة الملك سعود بالرياض. ما أقلقني أن هذه الرسالة أرسلت قبل الحادث بيوم بعد زيارة الرجل."

-"عبد القادر كان رجلاً ذكياً جداً، لا يخطو خطوة إلا وقد درسها جيداً. توقيت هذه الرسالة يعني أنه شعر بدنو أجله فأراد أن ينقل معلومة ما لذلك الشخص..نعيم... هل توصل إلى طلعت نجاتي؟"

-"نعم توصل إليه."

-"لم أقابل في حياتي رجلاً بذكاء عبد القادر. ضمن سلامة صاحبه بإرساله لذلك الصحفي المشاكس." قام صاحب القصر ثم اتجه نحو زاوية بها دولاب مرطب يحتفظ فيه بأفخر أنواع السيجار الكوبي. فتحه و أخرج منه سيجار كوهيبا ثم أشعله. أخذ منه شفطة عميقة ثم بدأ يركز بصره نحو الحديقة في حالة من التأمل.

-" من معرفتي بطريقة تفكير عبد القادر، هذه الرسالة بها إشارات لن يفهمها سوى متلقيها، كهذه الأرقام التي قرأتها في نص الرسالة." قال صاحب القصر بعد صمت قصير.

-" إلى الآن لم يستطع المحللون معرفة معنى هذه الأرقام.. قد تكون رقم قفل خزانة ما أو تاريخا مبهما أو.."

-"ماذا عن خليل المذكور في الرسالة من هو؟" سأل صاحب القصر مقاطعاً.

-"كما هو واضح في الرسالة... جد نعيم الوزان...توفى منذ زمن."

-"ولكن ذكره في الرسالة ليس له سياق...هذا أسلوب عبد القادر في لفت الإنتباه إلى أمر ما." فجأة استدار صاحب القصر نحو الرجل و بنبرة حازمة قال " أريدك أن تجلب لي معلومات عن خليل الوزان...كل صغيرة و كبيرة تتعلق به. هدف الرسالة هذه هو الإشارة لأمر ما يخصه. لا بد لنا أن نعرف ما هو ذلك الأمر."

☆ ★ ☆

22

كان الصمت هو السائد على نعيم و طلعت الذي كان يقود سيارته متجولا في شوارع القاهرة دون وجهة محددة. كلاهما كانا يفكرا في الحديث الذي دار مع كوثر المحلاوي الذي ما أن أضاف الضوء على جانب من الأحداث حتى أضفى الغموض على جوانب أخرى. بالنسبة لطلعت كانت ظنونه حول وجود مؤامرة خفية وراء الأحداث تتأكد مع كل اكتشاف جديد، في حين أن نعيم الذي هو ليس من هواة نظرية المؤامرة في تفسير الأحداث بدأ يظن أنه ربما يكون طلعت قد لامس الصواب في هذه المسألة بالذات.

-"كيف عرفت أن جثة الدكتور أحمد كانت مكشوفة الساق الأيسر؟" سأل طلعت بعد مضي دقائق و هو يحاول استيعاب ما سمع من كوثر و نعيم.

-"عندما بدأت السيدة كوثر تصف الحال الذي وجدت عليه جثة زوجها، كأنها كانت تصف جثة الدكتور عبد القادر. التشابه ليس فقط في طريقة و توقيت الوفاة ولكن أيضا في

التفاصيل الدقيقة. الأمر غريب جدا أنا في حياتي لم أرى أو أسمع بشيء كهذا."

-"أنا سمعت." قال طلعت بتردد ثم أكمل "هذا الوصف الذي وصفته أنت و السيدة كوثر قد مر علي من قبل."

-"ماذا؟" سأل نعيم بتعجب. "كيف؟"

- "منذ عدة سنوات ألفت كتاباً عن الجماعات السرية في مختلف بقاع العالم. بعضها قد سمع عنها الكثير و البعض لم يسمع بها سوى عدد قليل من الناس. أحد هذه الجماعات تدشن أعضاءها الجدد عبر جعلهم يرتدون رداءاً أبيضاً كاشفاً عن صدرهم و ساقهم الأيسر، و يلف حول أعناقهم حبل مشنقة. على هذا الشكل يقسمون قسم الولاء للجماعة التي تنذر العضو الجديد أن مصيره سيكون الموت شنقاً بنفس ذلك الحبل إذا خان أو أفشى سراً من الأسرار."

-"طلعت، ما هذا الذي تتحدث عنه." بدأ نعيم غير مصدق ما يسمع. "هذا أشبه بالقصص البوليسية منه إلى الواقع، ثم لا يمكن أن يكون الدكتور عبد القادر له علاقة بمثل تلك الأمور... هذا خيال واسع لا يمكن.."

-"و هل تعتقد أن ما شاهدته أنت و سمعت إلى الآن هو أمر طبيعي يحدث للجميع." قال طلعت مقاطعاً ثم أكمل."

نعيم يجب أن لا نغلق عقولنا عن جميع الإحتمالات، فعدم فهم الأمر لا ينفيه. هل إذا ذهبت إلى رجل في قرية نائية معزولة عن العالم ووصفت له جهازاً لم يسمع به من قبل يستطيع من خلاله أن يرى العالم و أحداثه في لحظة وقوعها، ما تظنه سيقول عنك؟ سيقول عنك مجنونا و لن يصدقك، و لكن هل عدم معرفته بالتلفاز ينفيه؟ هناك الكثير من الأمور التي تدور من حولنا دون أن ندري شيئاً عنها. مع الأسف أغلب الناس يعيشون حياتهم و جل اهتمامهم الأكل و الشرب و الراتب و المسكن وغيرها من أمور الحياة الخاصة و لاينظرون إلى الصورة الكبرى من مجريات الأمور، و النتيجة أن العالم يتغير من حولهم و هم لا يدركون."

-"طلعت...أنا لم أقصد التشكيك فيما تقول ولكن الدكتور عبدالقادر كانت له معزة خاصة في قلبي. كنت أعتبره بمثابة أبي. ما حدث له كان فاجعة لي و الآن أنت تشير إلى أنه ربما كان منتمياً إلى جماعة سرية قد تكون هي السبب في وفاته، هذا أمر ليس بالسهل علي أن أتقبله.... لكن إذا كانت هذه الجماعة سرية كما تقول فكيف عرفت أنت عنها هذه التفاصيل؟" سأل نعيم و قد بدأ إلى حد ما تقبل ما يقوله طلعت خصوصاً أنه إلى الآن لم يستطع أن يتوصل إلى تفسير آخر لما حدث.

-"هذه الجماعة بالرغم من سريتها إلا أنها معروفة لدى الكثير خصوصاً بعدما كتب عنها بعض المنتمين السابقين لها."

-"عن أية جماعة تتحدث ؟"

-"جماعة البنائين الأحرار.... المعروفة بالماسونية."

كان وقع الاسم على نعيم كالصاعقة. لقد سمع كثيره بالماسونية بل أنه قد تعرف على بعض المنتمين للماسونية في بعض دول العالم التي بها محافل معلنة. كانت رؤيته للماسونية أنها مجرد أكذوبة كبيرة يستخدمها بعض الكتاب لإلقاء مشاكل العالم عليها، و ما الماسونيون إلا جماعة من الناس يجتمعون كل حين و آخر لكي يحتفلوا و يمرحوا مدّعين التآخي بينهم.

-" لا تستغرب، فبالرغم من أن الكثير قد سمع عن الماسونية، إلا أن المعروف عنهم ما هو إلا نقطة في بحر. بل أن الكثير من المنتمين إلى تلك الجماعة لايدركون حقيقتها."

-"ولكني لم أسمع قط عن شخص قتل بهذه الطريقة سواءاً كان منتمياً إلى الماسونية أم لا. أنت بنفسك قد قلت أن بعض المنتمين السابقين هم الذين أفشوا بعض هذه الأسرار كطريقة تدشين الأعضاء الجدد. فهل وجدوا هؤلاء مشنوقين؟"

-"لا... في هذه معك حق وهنا تكمن غرابة الموضوع. ولكن يجب عليك أن تفهم أمراً وهو أن أغلب من كتب عن الماسونية

لم يصل إلى أعلى الهرم التنظيمي. الماسونية بها ثلاث و ثلاثون طبقة. الطبقات الثلاث الأولى هي المعروفة إلى حد ما و أغلب من يدخل في الماسونية لا يعتقد إلا بوجود الثلاث طبقات الأولى و قد لا يتعداها. الطبقة الرابعة فما فوق لا يدخلها و يعرف أسرارها إلا القلة. الذي كتب عن أسرار الطبقات الثلاث الأولى لم يفش سراً خطيراً يستحق القتل. ولكن ما حدث للدكتور أحمد و الدكتور عبد القادر شيئاً مريباً. لا يمكن أن يكون هذا التشابه مع الطقوس الماسونية مجرد مصادفة."

-"ولم الرداء الأبيض و كشف الصدر و الساق الأيسر؟"

-"هو رمز للطريقة التي قتل بها معلمهم الأكبر الذي يدعون أنه بنى هيكل سليمان. لقد رفض إفشاء سر البناء لبعض الخونة فكانت النتيجة أنه بعد عراك أسفر عن تمزيق ثيابه على هذا النحو، تمكنوا منه و شنقوه. فمات دون أن يفشي سر البناء. من هنا جاء اسم الماسونية و التي تعني البناء نسبة إلى من يعتقدون أنه البناء الأعظم، حيرام أبيف."

-"حيرام أبيف." ردد نعيم.

-"نعم هذا كان اسمه كما يدعي الماسونيون."

أدار نعيم رأسه نحو النافذة الجانبية للسيارة التي كانت في هذه الأثناء تجوب شوارع القاهرة دون وجهة محددة. تسير

كما تسير الكثير من السيارات حوله. ثم أخذ ينظر إلى المارة على الأرصفة لا يدري أيحسدهم على جهلهم أم يشفق عليهم. هل يعقل ان تكون حياة الإنسان ما هي إلا صورة ظاهرة لأحداث تجري من حوله تخبئ ما لايرى و لا يفقه؟ أيعقل أن تعرف الشخص بعد مماته و لا تعرفه و أنت قريب منه أثناء حياته؟ بدأ نعيم يراجع جميع ذكرياته مع الدكتور عبد القادر منذ أن تعرف عليه في الرياض. كل هذه السنين من اللقاءات و المراسلات، ظن أنه كان يعرفه جيداً ولكنه اكتشف أنه لم يعرف عنه سوى القشور.

-"تفسيري الوحيد لما جرى للدكتور أحمد و الدكتور عبد القادر هو أنهما ربما كانا أعضاء متقدمين في الماسونية و قد تجاوزا الخطوط الحمر أو كانا على وشك تجاوزها." قال طلعت ثم صمت قليلاً و هو يحك رأسه ثم أضاف مستغرباً "لا بد أن الأمر شكل تهديداً كبيراً للجماعة و إلا ما كان لهم أن يقدموا على مثل هذا الأمر الخطير. الحق يقال أنه من النادر أن تقدم الماسونية على قتل أحد بهذه الطريقة."

-"ربما ليست هي التي أقدمت على القتل...ربما من فعل هذا أراد أن يوهم بأن الدكتور أحمد و الدكتور عبد القادر كانا ماسونيين و أن الجماعة الماسونية هي التي قتلتهم."

لم يقتنع طلعت برأي نعيم الذي بدا له محاولة يائسة لإسقاط تهمة انتماء الدكتور عبد القادر إلى الماسونية.

-"ولكن لم كل هذا التعقيد ؟ و ما الهدف من توريط الماسونية ؟"

-"لا أدري ولكني ما زلت أستبعد أن يكون الدكتور عبد القادر له علاقة بجماعة كالماسونية."

-"نعيم ، مما هو معروف عن هذه الجماعة أنه من الصعب معرفة أعضائها و هم على قيد الحياة. فالسرية التامة التي يحيطون أنفسهم بها تجعلهم مجهولين تماماً ليس فقط لعامة الناس بل حتى لباقي الأعضاء لولا بعض الإشارات و العلامات التي في كثير من الأحيان لا يعرفها إلا هم. ستستغرب لو ذكرت لك بعض الأسماء التي دار حولها الشك و قيل أنها تنتمي إلى الماسونية." قال طلعت و هو يحاول أن يقنع نعيم بتقبل احتمال انتماء الدكتور عبد القادر لهذه الجماعة.

-"إذا كنت تقصد الشيخ جمال الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده فمن المعروف أنهما قد غرر بهما و سرعان ما انفصلا عن تلك الجماعة بعدما اكتشفا أهدافها السياسية."

-"أنا لم أقصد الشيخ جمال الدين الأفغاني و الشيخ محمد عبده. اللذين أقصدهم تردد عنهم أنهم كانوا من كبار قادة

الماسونية. بل أن بعضهم قد فلحوا في تكوين و قيادة دول."

-"من تقصد؟" سأل نعيم متعجباً من كلام طلعت.

-"أقصد الآباء المؤسسين للولايات المتحدة كجورج واشنطن و بنيامين فرانكلن و غيرهم. بل أن عدداً كبيراً من الموقعين على وثيقة الإستقلال الأمريكية قد عرف عنهم انتمائهم للماسونية، ففي ذلك الوقت كانت الماسونية في أوج قوتها و نفوذها و الانتماء في ذلك الوقت لم يكن بالأمر السري كما هو الحال الآن."

ابتسم نعيم ابتسامة تهكم مما يسمع ثم قال "أنت تتحدث الآن كمروجي نظريات المؤامرة. أمريكا دولة ماسونية؟"

-"أنا لم أقل أن أمريكا دولة ماسونية، ما قلته أن غالبية الآباء المؤسسين كانوا ماسونيين وهذا ليس رأيي أنا، ولكن هذا ما ظهر عندما نشر ماسونيون أمريكان لبعض قوائم الأعضاء و كان منهم من ذكرت... و لماذا نذهب بعيداً، انظر إلى الدولار الأمريكي ألم يلفت انتباهك رسمة الهرم الذي تتوسطه عين ثاقبة؟"

أخذ نعيم يسترجع شكل الدولار الأمريكي في ذهنه ثم أدرك تلك الرسمة الغريبة التي لم يفهمها قط. فما علاقة الهرم بالولايات المتحدة؟

-"نعم لقد لفتت انتباهي و لكن ما علاقتها بالماسونية."

-"هذه من أهم رموزهم المعروفة. و هناك رموز كثيرة أخرى لا يعرفها أحد سواهم... دعك من أمريكا، المحفل الماسوني في تركيا قد اعترف بأن بعض كبار حركة الإتحاد والترقي و التي ظهرت في أواخر عهد الدولة العثمانية كانوا من مؤسسي المحفل الماسوني في تركيا في عام 1909."

لم ينتبه نعيم إلى جملة طلعت الأخيرة فقد راعه ما ذكر عن اتخاذ الهرم رمزاً من قبل الماسونية و على الفور خطر على باله القبة الهرمية الغريبة التي رآها في منزل الدكتور عبد القادر. ثم شيئاً فشيئاً أخذت ذكريات أحداث تلك الليلة تنهمر على مخيلته و أصبح يراها و كأنها حدثت البارحة. تذكر لقاءه مع أستاذه ثم بدأ يتذكر الساعات التي لحقت اللقاء. مقهى الهرم الذهبي...الساحة السياسية....البريد الإلكتروني السري.... لقد جاءته رسالة الدكتور عبد القادر على ذلك العنوان الذي لا يعرفه أحد...كيف؟....إلا إذا..

-"طلعت خذنا الآن إلى أقرب فرع للهرم الذهبي." قال نعيم و في عينه و مضة لم يشهدها طلعت عليه من قبل فلم يتمالك أمامها سوى الاستجابة.

لقد توصل نعيم لأمر ما.

☆ ★ ☆

23

عام 1908

ذهب حارس المحفل إلى كبير الحراس لكي يعطيه القائمة كما هو المعتاد بعد كل اجتماع. لم تكن تحتوي القائمة سوى على عدد الحضور و توقيت الحضور. لا توجد أسماء ، فقط عدد الحضور و توقيت مجيئهم و خروجهم. على امتداد السنين التي عمل فيها الحارس في المحفل كان هذا التقليد المتبع بعد كل اجتماع يمر بشكل روتيني لدرجة أنه تساءل في عدة مرات بينه و بين نفسه عن جدوى هذا التقليد. لكنه كأحد البنائين الأحرار، تعلم أن ينفذ الأوامر دون مساءلتها، ولولا هذا الانصياع التام لما وصل إلى الدرجة الرابعة بعد سنين من الإرتقاء من الدرجة الأولى إلى الثانية ثم الثالثة حتى وصل إلى ما لا يصل إليه إلا القلة القليلة تاركاً وراءه جميع أترابه الذين مازالوا يعتقدون أنهم قد وصلوا إلى أعلى الهرم حينما وصلوا إلى الدرجة الثالثة غير مدركين أن ما بعد ذلك لا يقاس مع ما قبله. ها هو قد بدأ أول خطوات تسلق الهرم للوصول إلى حكمة المعلم الأكبر و كل ذلك بسبب انصياعه التام للأوامر دون مساءلتها.

طرق الحارس على باب مكتب كبير الحرس الواقع في الدور الأول من المبنى الأثري العتيق الذي لا يبعد كثيرا عن أرقى قصور استانبول. ذلك المبنى المعروف لدى غالبية سكان عاصمة الخلافة بأنه مقر جمعية مساعدة المحرومين.

-"أدخل " جاء الصوت من الداخل ففتح على إثرها الحارس الباب و دخل حتى وصل إلى المكتب الذي يجلس عليه رجل حاد الملامح أنيق الملبس في عقده الخامس. و ضع الورقة على مكتبه ثم هم بالإنصراف.

-"ما هذا؟ هل أنت متأكد من الرقم؟" سأل كبير الحرس بنبرة حازمة.

-"نعم سيدي، كان عدد الحضور واحدا و خمسين." أجاب الحارس و قد ذهل من هذا السؤال الذي لم يسمعه من قبل، طوال السنوات الماضية.

- "مستحيل، عدد الحضور لا يمكن أن يتجاوز الخمسين."

قال كبير الحرس و قد بدا توتر لم يشهده الحارس عليه من قبل.

- "سيدي أنا متأكد من العدد، حتى أن أحدهم لم يمكث سوى فترة بسيطة ثم انصرف."

ازداد قلق كبير الحرس بعد سماعه ملاحظة الحارس عن

ذلك الرجل الذي لم يمكث سوى فترة بسيطة فلم يكن هذا من عادة أعضاء الدرجة الثلاثين البالغ عددهم خمسين.

-"اوصف لي ذلك الرجل الذي انصرف مبكرًا."

-"متوسط الطول في الأربعين كان مرتديًا لباسًا عربيًا."

قال الحارس و قد بدأ يشعر أن الأمر في غاية الجدية و أنه ربما أدخل رجلا ما كان ينبغي له أن يدخل الإجتماع. "سيدي لقد كان يعرف كلمة السر، قالها دون أدنى تردد."

-"لا عليك... انصرف أنت."

خرج الحارس من الحجرة و قد ملأه القلق مما حدث في مناوبته على حراسة الإجتماع. لقد أدرك أن ما حدث في الليلة السابقة لم يحدث من قبل في تاريخ محفل إستانبول، بل ربما في تاريخ جميع محافل العالم. "يا لحظي التعس. يبدو أنني لن أرى في حياتي الدرجة الخامسة"

احتار كبير الحرس من أمره فمن ذلك الذي استطاع أن يعرف كلمة السر و يصل إلى مكان الإجتماع المحاط بأعلى درجات السرية و الكتمان. "ماذا عساه سمع ذلك العربي؟ يا له من توقيت سيء، الآن وقد اقتربت ساعة الصفر. لا بد من إخبار معلم المحفل، قد يستطيع هو معرفة شخصية ذلك الدخيل."

☆ ★ ☆

بالرغم من أن خليل لم يمض على قدومه إلى استانبول سوى يومين إلا أن ما شاهده و سمعه في هذه الفترة الوجيزة يعادل ما مر على سنوات عمره المتجاوزة الأربعين. مؤامرات تحاك لاستنزاع القدس و أبواب سرية و دهاليز و اجتماع غريب بلغة غريبة الدخول إليه بكلمة سر أغرب. "ما الذي يحدث في عاصمة الخلافة ؟" كان السؤال الذي ظل يفكر خليل عن إجابته أثناء سير العربة التي تقله إلى منزل شقيق الشيخ أبو بكر الحسيني. ولكن بالرغم من الغموض المحيط و الأسئلة الكثيرة التي لا يجد لها أجوبة، إلا أن خليل كان متأكداً من شيء واحد وهو أن طلعت باشا له علاقة بشكل ما بما شاهد في الليلة الماضية. لقد فضحه ذلك المجسم الهرمي بعينه المطلة إلى نفس الاتجاه الذي تطل إليه عين الهرم الذي يتوسط مكتبة قصر الضيافة. لم يساور خليل الشك في أن يكون طلعت باشا جزءًا من جمعية سرية تتآمر لفعل شيء خطير و لا يستبعد أن يكون يوري بك كوهين من أعضاء تلك الجمعية. بدا الأمر خطيراً لخليل الذي أخذ يفكر فيما ينبغي له أن يفعل. كان لا بد له أن ينبه أحدًا لما يجري و يحاك، و لكن من؟ لم يكن يثق خليل بأحد في هذه البلاد سوى بالشيخ أبو بكر، و لكن الشيخ غريب مثله في هذه البلاد لا نفوذ له بخلاف طلعت باشا أحد كبار قادة الإتحاد

و الترقي الذي أصبح ينافس السلطان عبد الحميد الثاني في إدارة البلاد. فماذا عساه الشيخ أبو بكر أن يفعل؟

☆ ★ ☆

دخل خالد الحسيني على أخيه الأكبر أبو بكر في قاعة المعيشة، والتردد يملؤه في فتح الموضوع للمرة الثانية بعد النقاش الطويل الذي دار بينهما في الليلة الماضية. وجد أخاه أبو بكر يقرأ من ورده اليومي من القرآن فلم يشأ أن يزعجه وهم بالخروج عندما أتاه صوت أخيه من خلفه .

-"خالد، هل أردتني في شيء؟" سأل الشيخ أبو بكر و قد كان يشعر أن أخاه يريد فتح موضوع خليل مرة ثانية.

-"فقد أردت تذكيرك بقرب موعد قدوم ضيفك." قال خالد بتردد ملحوظ .

-"كيف أنسى و أنا الذي دعوته، و لكن هل هذا حقاً ما أردتني من أجله؟" سأل الشيخ أبو بكر و هو يعرف الإجابة سلفاً.

-"أخي.. أنت تعلم مدى ثقتي برجاحة عقلك و حكمتك، ولكني أخشى أن تكون تسرعت في قرارك بخصوص خليل. أنت لم تلتق بالرجل منذ سنين. أليس من الأجدى أن ننتظر قليلا قبل مفاتحته؟ "

-"خالد، ثق أني متيقن من إخلاص خليل كتيقني من إخلاصك أنت. صحيح أني لم ألتق بخليل منذ فترة و لكن أخباره كانت دائماً تصلني. ثق أن الرجل سيكون مكسبًا لنا. فنحن بحاجة لأمثاله فهو ممن ينطبق عليه قول الله تعالى ﴿ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ."

صمت خالد قليلاً هازاً رأسه كمن بدأ يقتنع ثم سأل :

-"هل تعتقد أنه سيتقبل ما ستخبره؟ "

-"ستؤلمه الحقيقة كما آلمتنا ولكني على ثقة بأنه سيتقبلها كما تقبلناها نحن."

أنهى الشيخ أبو بكر جملته على صوت الخادم يستأذن الدخول من أجل إخبار سيده عن قدوم الضيف المنتظر. أشار عليه خالد الحسيني أن يدخله إلى قاعة الضيوف ثم هم الشيخ أبو بكر لاستقبال خليل الوزان بينما ظل خالداً في مكانه منتظراً ما سيسفر عنه اللقاء.

☆ ★ ☆

24

إذا أردت أن تستسقي الحقيقة من أحداث قد جرت ، فعليك أن تتجرد من عاطفتك و تنزع عنك كل فكر مسبق و تنظر إلى الأحداث بعين مجردة، و تذكر أنه لا يوجد حادث بلا مقدمات.

تذكر نعيم تلك الكلمات التي كان الدكتور عبد القادر دائمًا يرددها لطلابه مع بداية كل فصل جديد في الجامعة. كان الدكتور عبد القادر يدرك أن نزع العاطفة و الفكر المسبق أثناء الحكم على الأمور كان من الصعوبات التي يعاني منها طلابه. بل إنه من الصعوبات التي كان يعاني منها المجتمع ككل من وجهة نظره. كان نعيم دائمًا ما يردد لأستاذه بأن الإنسان بطبعه كائن تتغلب عليه العاطفة فكيف يستطيع نزعها في حكمه على الأمور.

" كيف نستطيع تقبل ما تقوله عن سلبيات الحضارة الإسلامية؟ كيف نستطيع أن نتقبل أن صلاح الدين القائد العظيم الذي استعاد القدس أسس دولة ملكية قائمة على تمركز السلطة في نسله ؟ كيف نستطيع تقبل ما تقوله بأن استبداد بعض الخلفاء

بعد انتهاء الدولة الراشدة هو ما منع الفقهاء من بحث الجانب السياسي في الشريعة و أصول الحكم و التركيز على جوانب الطهارة و ما شابهها مما لا يشكل تهديدًا لسلطة الخليفة؟ نحن أمة مهزومة فإذا شككنا في تراثنا الحضاري فماذا يبقى لنا؟"

كان الدكتور عبد القادر يرد على تساؤلات نعيم بنفس الإجابة. " الله أكمل لنا ديننا و لكنه لم يكمل البشر و لم يقفل عليهم باب الاجتهاد . تذكر نعيم أن هناك فرق بين الإسلام و المسلمين كما أن هناك فرق بين الدين و الحضارة. سلبيات الثاني لا تنعكس على الأول، تذكر ذلك و **انزع عنك العاطفة إذا أردت أن تفهم و تصل إلى الحقيقة.**"

أخذت كلمات الدكتور عبد القادر تراود نعيم الآن أكثر من أي وقت مضى.

☆ ★ ☆

- " نعيم هانحن قد وصلنا إلى الهرم الذهبي، هل يمكن لك أن تخبرني ما الذي تفكر فيه ؟ " سأل طلعت و هو يصف سيارته بقرب المقهى الذي كان يعج بالزبائن كعادته.

خرج نعيم من السيارة بعد توقفها ثم اتجه إلى داخل المقهى و خلفه طلعت الذي كان في حيرة من رغبة نعيم المفاجئة في الذهاب إلى مقهى الإنترنت الشهير. ومما زاد من حيرة

طلعت صمت نعيم و عدم إفصاحه عما يدور في باله. لم يستسغ طلعت إحساس الأطرش في الزفة.

دخل نعيم المقهى و لكنه لم يتجه إلى ركن الحاسب الآلي بل استمر في سيره إلى باب في الخلف مكتوب عليه "الإدارة". فتح نعيم الباب و اتجه إلى الداخل على مرأ من طلعت الذي قرر أن يتجه إلى ركن قد خلى لتوه و أن يحجزه قبل أن يحتله غيره فلا يجد هو و لا نعيم مكانًا يجلسا فيه. كان المكان مزدحمًا بالشباب و الشابات متناثرين حول المقهى في مجموعات تتراوح أعدادها. لم يكن جميعهم يستخدم الإنترنت فبعضهم قد جاء من أجل مجالسة الأصحاب و الصاحبات. كانت الضحكات تعلو كل حين وآخر من عدة اتجاهات. طلعت كان الوحيد الجالس بمفرده يحتل مكانًا يكفي لعدة أشخاص، لاحظ هو ذلك عندما دخلت مجموعة من ثلاثة شابات و شابين و أخذوا يبحثون عن مكان ليجلسوا فيه فلم يجدوا غير الزاوية التي كان يستحوذ عليها طلعت. كانت نظرتهم إليه كأنها تقول "ما الذي أتى بك إلى هنا بمفردك فهذا المكان ليس لأمثالك." لأول مرة في حياته شعر طلعت و كأنه سمكة نهر وضعت في ماء مالح. كل الذي دار في خاطر طلعت في هذه اللحظة " ما الذي جعلني أتبع الوزان إلى الداخل."

غاب نعيم دقائق ثم خرج من الباب الذي دخل منه فاتجه نحو الخارج ممسكا بجواله غير منتبها لطلعت الذي ظل ينادي عليه دون جدوى وقد استبدل الغيظ شعوره بالدهشة فترك المكان الخاوي الوحيد في المقهى و اتجه خلف نعيم إلى الخارج مصممًا هذه المرة على الحصول على إجابة.

-"أحسنت يا مصطفى.. مع السلامة." فرغ نعيم من مكالمته ثم استدار يبحث عن طلعت الذي خرج لتوه من الهرم الذهبي ووجهه مكتظًا من الغيظ.

-"ما الذي يحدث؟ أنا أشاركك ما أعلم و أنت تتجاهلني كما لو أني غير موجود...إذا لم تكن في حاجتي الآن أخبرني فلدي الكثير من الأعمال.." بدأ طلعت حديثه بنبرة غضب ولكن سرعان ما قاطعه نعيم:

-"لقد خدعت... الأمر كما قلت أنت عندما خاطبتني على الجوال، أخطر بكثير مما توقعنا."

-"ماذا؟" سأل طلعت وقد ذهب الغضب و عادت الدهشة.

-"دعنا نذهب إلى مكان آخر و سأخبرك كل شيء." قال نعيم و هو يتجه نحو سيارة طلعت.

انتظر نعيم حتى تحركت السيارة و قد رتب تفكيره في الأثناء ثم أكمل حديثه.

-"مع سرعة الأحداث كنت قد نسيت أمرًا حيرني في بادئ الأمر."

-"أي أمر هذا ؟" تساءل طلعت.

-"البريد الإلكتروني الذي أرسلت عليه الرسالة."

-"لا أفهم.. ما الغريب في أمر البريد الإلكتروني الذي أرسلت عليه الرسالة."

-"الغريب أن عنوان البريد الإلكتروني الذي أرسلت عليه الرسالة لا يعرفه أحد. بل إنه مسجل باسم مستعار أستخدمه للمشاركة في الساحات السياسية دون الإفصاح عن اسمي الحقيقي. كيف استطاع الدكتور عبد القادر معرفة ذلك العنوان؟ و لماذا أرسل عليه رسالته وليس على العنوان المعروف لديه و الذي دائمًا كنا نتراسل من خلاله؟" تساءل نعيم ثم أمهل طلعت برهة لكي يهضم الأمر.

-"و ما علاقة هذا بالهرم الذهبي. ؟"

-"كلامك عن اتخاذ الماسونية الهرم كأحد رموزهم ذكرني بأمرين. الأمر الأول أنه لفت انتباهي في منزل الدكتور عبد القادر قبة على شكل هرم، كانت هذه أول مرة أرى فيها قبة بهذا الشكل."

-"نعيم، أنت تؤكد شكي بأن الدكتور عبد القادر كان

ماسونيا، فمن المعروف عنهم أنهم يستخدمون رموزهم بشكل يتعرف عليه باقي الماسونيين ولكن في نفس الوقت لا يكون رمزًا فاضحًا مثل الشكل الهرمي أو النجمة الخماسية فكلا الرمزان غير خاصين فقط بالماسونية... ولكن ما علاقة هذا بالرسالة؟"

-"العلاقة تكمن في الأمر الثاني..بعدما خرجت من عند الدكتور عبد القادر، طلبت من سائقه أن يأخذني إلى مقهى إنترنت فأخذني إلى الهرم الذهبي. فجأة تذكرت إصراره على أن يدخل معي و أن يحضر لي حاسبًا أليًا محمولاً بنفسه.. أذكر جيدًا أنني دخلت على البريد السري في تلك الليلة."

-"تقصد أن السائق ربما رآك و أنت تدخل عليه؟"

-"لا ، السائق كان قد انصرف...بل أقصد أن الدكتور عبد القادر هو الذي رآني."

لم يفهم طلعت قصد نعيم من جملته الأخيرة، كان ذلك واضحًا على تعابير وجهه.

-"كيف رآك و هو في منزله؟"

-"إذا كان المقهى هو نفسه مقدم خدمة الاتصال على الإنترنت فباستطاعته أن يدخل على أي جهاز لديه و أن يراقب كل ما يفعله مستخدم الجهاز."

-"لهذا أنت ذهبت إلى الإدارة لكي تتأكد من مقدم الخدمة؟"

-"نعم"

-"ولكن كيف استطاع الدكتور عبد القادر أن يراقب جهازك إلا إذا..."هنا بدأ طلعت يدرك ما أدركه نعيم.

-"إلا إذا كان شريكًا في الهرم الذهبي. لقد طلبت من مدير مكتبي مصطفى أن يأتيني بأسماء الشركاء قبل أن ألقاك اليوم و قد فعل."

-"الدكتور عبد القادر.."

-"هو و فؤاد شوكت و كمال أغلو... المثير أيضاً في الموضوع أن فؤاد شوكت عندما قابلته البارحة سألني عن الصديق الذي حضرت جنازته في المغرب وعندما ذكرت اسمه تظاهر بعدم معرفته...ما الذي يجعل شخصًا ما ينكر معرفته بآخر؟"

-"إذاً كان يخشى أمرًا ؟"

-"طلعت، لا بد أن أقابل فؤاد شوكت. أريد منه تفسيرًا لما حدث؟" قال نعيم بإصرار و هو ينظر إلى طلعت.

-"الآن دون موعد؟"

-"نعم.. سأصف لك الطريق إلى قصره فما زلت أذكره."

-"لا بأس.. فالمسألة مازالت تزداد غرابة." قال طلعت متأملاً و كان حسه الصحفي يقول له أن ما زال في القصة بقية.

☆ ★ ☆

25

- "نعيم، هل تساءلت عن الدافع وراء هذه الإشارات التي بعثها إليك الدكتور عبد القادر قبيل وفاته؟" سأل طلعت و هو يدخل منطقة مصر الجديدة حيث قصر فؤاد شوكت.

-"لا لم أصل إلى هذا السؤال بعد. فمازلت أبحث عن أجوبة للأسئلة الأخرى التي تساءلناها." رد نعيم بتهكم و هو يشير إلى طلعت بأن يلف يمين في الشارع المقبل.

-"صدقني، الجواب على هذا السؤال سيوضح أمورًا كثيرة. إرساله لك الرسالة عبر بريدك السري الذي لا يعرفه أحد غيرك هو الذي قادك للربط بينه و بين فؤاد شوكت، كأنه أرادك أن تعلم بهذه العلاقة تمامًا مثلما أوصلك إلي عندما ذكر اسمي مما أوصلنا إلى الدكتور أحمد عبد الوارث."

- " تقصد أنه يوجهنا عبر تلك الإشارات التي تركها إلى أمر ما يريدنا الوصول إليه؟ " تساءل نعيم و هو يتأمل كلام طلعت.

-"لا أجد تفسيرًا آخرًا.. الدكتور عبد القادر قتل هو والدكتور أحمد و الصحفي موشي جولد لأمر..."

- "مهلاً..مهلاً" قاطع نعيم "ماذا عن ذلك الصحفي موشي؟ ما علاقته بالموضوع؟"

- "ألم أخبرك أنه وجد مشنوقًا في منزله بكندا في نفس التوقيت الذي شنق فيه الآخران. هل تعتقد أن هذا كان من قبيل المصادفة؟ لا أعتقد... الثلاثة كان بينهم رابط ما"

- "ألم تخبرني بأن موشي قال لك بأنه رأى صورة لجد موفاز حائيم ضمن وثائق اطلع عليها في تركيا لبعض الوزراء في عهد الدولة العثمانية؟"

- "نعم ولكن كان الرجل الذي في الصورة يدعى محمد جاويد باشا و ليس زيفي حائيم هذا ما أثار استغراب موشي." أوضح طلعت

- "هل سمعت بيهود الدونمة؟"

- "تقصد اليهود الذين تظاهروا بالإسلام، أذكر أني قرأت عن أمر كهذا." قال طلعت و هو يحاول استذكار ما قرأه عن الموضوع ذاته.

- "من الأمور التي حيرت بعض المؤرخين المهتمين بأواخر عهد الخلافة العثمانية هي علاقة الإتحاد و الترقي بيهود الدونمة. البعض كان يعتقد أن الإتحاد و الترقي كان واجهة ليهود الدونمة و البعض الآخر رفض تلك الأطروحة و صنفها

ضمن سلسلة نظريات المؤامرة." قال نعيم شارحًا.

- "نعم أذكر أنني قرأت أمرًا كهذا ولكن مع أي الفريقين كان الدكتور عبد القادر؟"

- "كان له رأي خاص لم يشأ أن ينشره حتى يتوفر له دليل."

- "رأي خاص." تمتم طلعت "و ما هو هذا الرأي؟"

- "لكي تفهم رأيه لا بد لك أن تدرك تاريخ يهود الدونمة. هذه الحركة أسسها كاهن يهودي من طائفة الكبالا يدعى ساباتاي زيفي عاش في القرن السابع عشر."

- "مهلاً..مهلاً ما الكبالا ؟" قاطع طلعت متسائلاً.

- "اليهود ليسوا طائفة واحدة بل عدة طوائف. أحد هذه الطوائف تدعى الكبالا. معتقداتها قائمة على كتب كالتلمود وغيرها مما دونها بعض الكهنة عن أقوال أنبياء و كبار كهنة بني إسرائيل على حد زعمهم. الكبالا تعتبر أغمض طائفة يهودية، فتعاليمها منغلقة إلى حد كبير على أتباعها و يقال أنها تعتمد على الكثير من الشعوذة."

- "من أين لك بهذه المعلومات؟ هل أنت رجل أعمال أم باحث في الأديان."

- "الثقافة و الإطلاع ليست حكرًا على الصحفيين." قال

نعيم بنبرة مشاغبة ثم أكمل حديثه "ساباتاي زيفي هذا كان يعتقد بأنه هو مسيح بني إسرائيل المنتظر و قام بالدعوة لإنشاء دولة يهودية تحت قيادته في فلسطين مما أثار عليه غضب بعض أحبار اليهود الذين لم يشاركوه نفس المعتقد فقاموا بالوشاية به عند السلطان محمد الرابع و الذي أمر بقتله لإثارته الفتن."

- "مهلا، هل قلت أن بعض اليهود هم الذين وشوا به؟" سأل طلعت متعجبًا .

- "هذا ما قلته. فبخلاف ما يعتقده الكثيرون لا يؤمن جميع اليهود بقيام دولة يهودية بفلسطين أو بغيرها. بل إن البعض منهم يؤمن بأن الله أمر بتشتيتهم كعقاب لهم عن عصيانهم لأوامره و أن من يشارك في إنشاء دولة يهودية و خصوصًا في فلسطين فهو يعصي أوامر الله مجددًا."

- "نعم.. نعم.. أذكر أن موشي أخبرني نفس ما تقوله ولكنه لم يكن يعلن ذلك لمكانته الصحفية و الاجتماعية في كندا... ولكن ما الذي حل بسباتاي زيفي؟"

- "أعلن عن دخوله الإسلام وعدوله عن دعوته السابقة و اتخذ اسم محمد عزيز و قام أتباعه في الدخول إلى الإسلام مثله و كانوا حريصين على إظهار ممارستهم لجميع الشعائر الإسلامية إلى أن وجدوا بعد عدة سنوات يتآمرون في أحد

المعابد اليهودية فأدركت الدولة أنه هو و أتباعه كانوا فقط يتظاهرون بالدخول في الإسلام بينما هم يتآمرون عليه فكان نصيبهم التفرقة و النفي."

- "إذًا ساباتاي زيفي هو المؤسس الفعلي للحركة الصهيونية. فدعوته سبقت دعوة تيودور هرتزل بمائتي عام."

- "و هذا ما كان يقوله الدكتور عبد القادر." قال نعيم جملته ثم انتبه إلى قصر على بعد مائة متر فأشار إليه. "هذا هو المكان."

نظر طلعت إلى القصر الكبير المتميز عن باقي القصور في المنطقة بمعماره الفريد. اقترب بسيارته من البوابة الخارجية ثم توقف فخرج نعيم على الفور متوجهًا إلى غرفة الحارس بجانب البوابة ثم طرق على باب الغرفة عدة طرقات فخرج على إثرها رجل طويل القامة مفتول العضلات تعرف عليه نعيم من زيارته السابقة.

- "السلام عليكم، لا أدري إن كنت تذكرني أم لا، اسمي نعيم الوزان كنت قد زرت السيد فؤاد شوكت منذ يومين."

- "أهلا نعيم بيه، أي خدمة ؟ " قال الحارس الذي تذكر نعيم.

- "أريد مقابلة السيد فؤاد لأمر هام، هل بإمكانك إخباره برغبتي في مقابلته؟"

- "كان بودي و لكن فؤاد بيه غير موجود. لقد سافر صباح اليوم."

- "سافر" ردد نعيم الذي أدهشه الخبر " إلى أين سافر؟"

- "أنا آسف و لكن فؤاد بيه لا يخبرني عن تحركاته." رد الحارس بشيء من السخرية.

أدرك نعيم بأنه لا جدوى من محاولة معرفة المزيد من المعلومات من الحارس فعاد إلى سيارة طلعت.

- "الحارس يقول بأنه سافر..هذا أمر غريب فما زالت هناك أمور كثيرة لم نتفق عليها بخصوص العمل." قال نعيم مستعجبًا و بصوت خافت كأنه يحدث نفسه.

- "ربما طرأ أمر هام اضطره للسفر على عجل. لماذا لا تحاول الاستفسار عن طريق مكتبه؟"

- "هذا ما أنوي فعله." قال نعيم ممسكًا بجواله.

بعد ثوان من الإتصال على رقم مكتب فؤاد شوكت رد صوت نسائي لم يكن صوت سوزي. عرف نعيم بنفسه ثم سأل عن فؤاد شوكت.

- "فؤاد بيه اضطر للسفر سيغيب نحو أسبوع، أي رسالة أستطيع توصيلها؟"

- "ماذا عن سوزي بدران كيف أستطيع الوصول إليها ؟"

- "الآنسة سوزي لم تعد تعمل لدينا."

- "ماذا؟ ولكني التقيت بها مساء أمس. كنا سويًا في يخت السيد فؤاد." قال نعيم و قد ذهل من هذا الخبر المفاجئ.

- " هذا كان أمس.. أي خدمة أخرى؟ " قالت السكرتيرة وقد بدا على صوتها نبرات الملل.

- "أمر أخير هل يمكن لك أن تزوديني بعنوان الآنسة سوزي؟"

- "آسفة هذا ضد نظام الشركة ؟ "

أنهى نعيم المكالمة و قد شعر أن سفر فؤاد و خروج سوزي من العمل أمر يثير الريبة. ولكن لم يكن أمامه سوى حل واحد لكي يفهم سبب سفر فؤاد المفاجئ.

- "طلعت هل لديك معارف في شركة المحمول ؟ "

- "نعم لدي معارف هناك و لكن لماذا ؟ "

- "أريدك أن تحصل لي على عنوان سوزي بدران من خلال شركة المحمول. من حسن الحظ أن رقم جوالها مسجل لدي."

- "هذا أمر بسيط ، و لكن هل هناك جدوى من الذهاب إليها و خصوصًا أنها لا تعمل لدى فؤاد شوكت الآن. لماذا لا تأتي معي إلى شقتي و نتناول العشاء سويًا و نتباحث ما توصلنا إليه."

-"طلعت..أشكرك على الدعوة الكريمة و لكنك لم تر سوزي و مكانتها عند فؤاد شوكت. هي لم تكن مجرد موظفة، بل لا أبالغ إذا قلت أنها كانت يده اليمنى... رجال الأعمال لا يتخلون عن موظف بهذه الأهمية إلا لأمر جد خطير. ينتابني شعور أن هذا الأمر يتعلق بي و بالدكتور عبد القادر."

هز طلعت رأسه مبديًا موافقته على ما يقوله نعيم ثم أخذ يتصل بصديقه في شركة المحمول.

☆ ★ ☆

وصل طلعت و نعيم إلى العنوان الذي حصلا عليه لسوزي بدران. صف طلعت سيارته تحت العمارة التي لم تكن تبعد كثيرًا عن الفندق الذي يسكنه نعيم. كان المساء قد حل وشعر نعيم أنه قد أثقل على طلعت الذي لم يذهب إلى داره منذ الصباح، فطلب منه أن يذهب ليرتاح وسيقابل هو سوزي ليستفسر منها عما حدث ثم سيتجه مشيا إلى الفندق. أبى طلعت في بادئ الأمر وأصر على انتظار نعيم في السيارة ليأخذه بعد ذلك لشقته لتناول العشاء سويًا و لكن نعيم اعتذر بلطف. لم يقتنع طلعت حتى حصل على وعد منه بأن يزوره غدًا على الغداء.

صعد نعيم إلى الطابق الثالث حيث شقة سوزي و طرق على الباب ثلاث طرقات ثم انتظر. لوهلة شعر بأنه ربما قد تسرع

في المجيء فلعل خياله هو الذي يصور له مؤامرة لا وجود لها. قد يكون هناك تفسيرًا بسيطًا لكل ما حدث ولكنه لا يراه من شدة بساطته كالذي يبحث عن قلم وهو في جيبه ، و لكنه تذكر قول الدكتور عبد القادر له في إحدى المرات " من واقع خبرتي أن **التفسير البسيط للأمور قد يكون مريحًا و لكنه ليس دائمًا صحيحًا**."

همّ نعيم بالذهاب بعد أن انتظر قليلاً و لم يتلق إجابة، ولكن ما أن بدأ يتوجه نحو المصعد حتى سمع صوت الباب يفتح فاستدار ليجد سوزي أمامه وقد بدا على وجهها آثار حزن قد مزج لتوه بعجابة لرؤيتها نعيم.

-" أنت، ما الذي أتى بك إلى هنا ألا يكفي ما سببته لي من مشاكل بسبب كثرة أسئلتك؟" قالت سوزي بحرقة ظاهرة على نبرات صوتها.

-" عن ماذا تتحدثين؟ ما الذي فعلته ؟" سأل نعيم و قد فوجئ بلوم سوزي.

-" لاشيء، فقط تسببت في طردي من العمل."

-"أنا، ولكن كيف و لماذا ؟"

-" أرجوك لا أود التحدث في هذا الموضوع، ماذا تريد؟ "

-"سوزي أنت امرأة ذكية و على درجة عالية من المهنية

و فوق ذلك لقد تخرجت من أرقى الجامعات. أنا واثق أنك لن تجدي مشكلة في الحصول على عمل مماثل إن لم يكن أفضل مما كنت عليه و أنا على استعداد لمساعدتك و لكن أريدك أولاً أن تخبريني ما الذي جرى ؟"

نظرت سوزي إلى نعيم و قد استشعرت في صوته الصدق، و بعد قليل من التفكير قررت أن تثق فيما قاله بخصوص مساعدتها.

-" تفضل سأخبرك كل شيء بالداخل."

بدأت سوزي تقص لنعيم كيف أنه في الصباح عندما كانت مع فؤاد شوكت في مكتبه تلقى مكالمة من شخص كان يتحدث باللغة الإنجليزية. استوقفها ردة فعل فؤاد على خبر بدا لها أنه سمعه من محدثه. تقلب وجهه وظهر عليه القلق بشكل واضح.

-" لم أر في حياتي فؤاد شوكت على هذا الحال كان يتحدث مع الطرف الآخر كالموظف البسيط الخائف من رئيسه في العمل. يبدو أن ما سمعه كان له وقعًا كبيرًا عليه لدرجة أنه لم يكترث لوجودي."

-" هل استطعت أن تعرفي الأمر الذي كان يتحدث فيه ؟ " سأل نعيم وقد ملأه الفضول.

-" فؤاد لم يتكلم كثيرًا فكان مستمعًا أكثر منه متحدثًا

ولكني فهمت من القليل الذي قاله." ثم نظرت سوزي مباشرة إلى نعيم و أضافت. "أن شخصًا ما من طرفك كان يستفسر عن مقهى الهرم الذهبي."

-" شخص من طرفي." ردد نعيم ثم أضاف بصوت خافت " هذا مصطفى."

-" بعدما أنهى فؤاد المكالمة انتبه لوجودي فطلب مني الانصراف. تذكرت و أنا أهم بالخروج سؤالك عن المقهى الذهبي عندما كنا في الطريق إلى اليخت فأخبرت فؤاد، و يا ليتني لم أفعل! "

-" ما الذي الحدث؟ "

-" غضب عندما عرف أنني أخبرتك عن صلته بالمقهى و اتهمني بأني أفشي أسرار أعماله فقام بطردي، هكذا في لحظة دون حتى أن يستمع إلي. تخيل بعد سنوات من العمل المضني لديه يقوم بطردي على سبب تافه كهذا." قالت سوزي و قد بدأ يتحشرج صوتها من الأسى ولكنها سرعان ما تماسكت ثم أضافت " على العموم هو الخسران فلن يجد موظفًا بكفاءتي يخدمه كما خدمته أنا."

-" هذا أمر غريب...يطردك لأنك أخبرتني بأنه شريك في المقهى الذهبي...هل عندك فكرة إلى أين سافر؟ "

- "سافر؟!" رددت سوزي مندهشة. " لا علم لي بهذا الأمر، لا بد أنها سفرة مفاجئة."

- "سوزي أنا آسف على ما تسببت لك فيه دون قصد، وأنا عند وعدي بخصوص مساعدتك في إيجاد عمل لا يقل على ما كنت عليه."

أحست سوزي بالامتنان وقد شعرت بالصدق في كلام نعيم الذي همّ بالخروج من شقتها بعد شكره لها على ما أخبرته. وأثناء ما كان نعيم يفتح الباب خطر على بالها سؤال.

- "نعيم بيه...ما الذي يحدث ؟"

نظر نعيم إلى سوزي ثم قال.

- "منذ عدة أيام و أنا أسأل نفسي هذا السؤال، حتى بدأت أدرك أن **في بعض الأحيان قد تكون الحقيقة واضحة كالشمس ولكن من شدة وضوحها لا نستطيع النظر إليها.**"

☆ ★ ☆

قرر نعيم أن يذهب إلى الفندق مشيًا، فكان يجد دائمًا في المشي الفرصة لكي يرتب أفكاره كلما واجهته مسألة استلزمت كامل تركيزه. لقد بدأت تتضح الصورة أكثر لنعيم ولم يعد يشك في أن أستاذه كان على صلة بجماعة سرية سواء كانت الماسونية

أو غيرها و أن تلك الجماعة هي التي قامت بقتله و جعل موته يبدو كما لو أنه انتحر دون أن تغفل وضع بعض اللمسات التي في العادة لا يعرفها غير المنتسبين لتلك الجماعة لكي تجعله عبرة لرفقائه. ولكن ما الذي اقترفه الدكتور عبد القادر لكي يستحق مثل هذا العقاب؟ كان ذلك سؤالاً ما زال يبحث عن إجابة.

بدا أيضًا لنعيم أن الدكتور أحمد عبد الوارث و موشي جولد قد اقترفا نفس الذنب فقتلا في نفس الوقت و بنفس الطريقة. ويبدو أن الدكتور عبد القادر قد شعر بدنو أجله فأراد أن يرسل رسالة لكي لا يضيع كل شيء بموته، و يا لها من رسالة قد تبدو بسيطة في الوهلة الأولى لا تحمل أي معلومة ذات أهمية و لكنها على العكس تمامًا فكل تفصيلة بسيطة تتعلق بالرسالة ابتداءًا من الطريقة التي أرسلت بها إلى آخر سطر مكتوب ، كانت مليئة بالمعاني و الإشارات التي تدل متأملها إلى الحقيقة و لذلك أخذ نعيم يراجع كل حرف في الرسالة و كل رقم.

استوقف نعيم مجموعة الأرقام التي تلت عبارة رحم الله جدك خليل، (256- 114/2) و المجموعة الأخرى التي تلت توقيع الدكتور عبد القادر بنوزاني، (8- 114/2). ما المقصود بهذه الأرقام؟ و ما سر الترحم على جدي خليل ؟ ألحا هذان السؤالان على ذهن نعيم.

كان هناك أمر مألوف يخص تلك الأرقام ولكن لم يستطع نعيم معرفة ذلك الأمر. شعر أن هذه الأرقام قد مرت عليه من قبل و لكنه لم يستطع أن يتذكر متى و كيف. ظل نعيم يعصر ذاكرته وهو يحاول أن يتذكر أمرًا ربما قد أغفله بخصوص جده خليل أو حديثًا جرى بينه و بين الدكتور عبد القادر قد يدله على المعنى الخفي وراء تلك الأرقام. شعر نعيم أن هذه الأرقام لا بد أن تحمل معنى قريبًا منه و إلا ما كان ذكرها الدكتور عبد القادر في الرسالة. فحتمًا أراد أن يوصل أمرًا مهمًا دون أن يلفت النظر... "دون أن يلفت النظر...هل معنى ذلك أنه كان مراقبًا من قبل نفس الجهة التي قتلته و أنه كان يدرك ذلك؟ "

بدأت الحقيقة تتضح أكثر فأكثر لنعيم و لكنه كلما أمعن النظر فيها كلما أخذ يشعر أن هذه الحقيقة قد تحرقه كما يحرق البصر النظر إلى الشمس.

26

دخل الخادم على اللورد البريطاني صاحب القصر ليخبره عن قدوم الضيف المنتظر. أشعل صاحب القصر سيجاره الكوبي الفاخر و أشار لخادمه بأن يدخل الضيف. بعد لحظات دخل القاعة فؤاد شوكت وكان يبدو عليه القلق من هذا الاستدعاء المفاجئ من قبل اللورد. كانت الأحداث تسير بشكل متسارع في الأسابيع الأخيرة و خصوصًا منذ أن استدعي المرة السابقة لكي يوصل الرسالة للدكتور عبد القادر في منزله بالرباط. تلك الرسالة التي كان مفادها أن أمره قد انكشف.

أشار اللورد لفؤاد بالجلوس، فجلس على الفور كالطالب الذي ينتظر لفتة من أستاذه تبين له إن كان قد فعل شيئًا دون أن يدري يستحق العقاب أم أنه في مأمن.

-"ما لك قلق؟ " سأل اللورد صاحب القصر وعلى وجهه ابتسامة سخرية ثم أضاف "أريدك أن تهدأ فما سأقوله لك اليوم يحتاج إلى كامل تركيزك."

أشار اللورد إلى فؤاد بأن يأخذ من سيجاره الكوبي ثم

أكمل حديثه.

-" لقد استطاع عبد القادر أن يمرر رسالة عبر البريد الإلكتروني بعد لقائك معه في الرباط. الرسالة بها إشارات مريبة قد تكشف أمرنا. و لذلك كان الاجتماع العاجل أمس لمجموعة بولدربرج."

أصاب فؤاد الذعر لسماعه أن مجموعة بولدربرج قد اجتمعت البارحة على غير موعدها السنوي. فهذا نادرًا ما يحدث إلا إذا كان الأمر جد خطير يتعلق بقائد من قادة الدول يراد التخلص منه بشكل عاجل أو ما هو أسوأ تهديد يمس كيان الجماعة.

-" تباحثنا التقرير الذي أعده القسم الأمني عن كبار أعضاء الفرق الموالية لنا، مثلك أنت، لكي نتفادى الخلل الأمني الخطير مستقبلاً و الذي مكن شخصًا مثل عبد القادر بنوزّاني الوصول في هرم الجماعة إلى ما وصل إليه. التقرير قد أثبت ولاءك و أخلى أي مسؤولية لك فيما حدث."

في هذه اللحظة تنفس فؤاد الصعداء وبدت علامات الراحة على وجهه.

-"شكرًا سيدي على هذه الثقة."

-" ولكن ليس لهذا الأمر استدعيتك." قاطع اللورد. "

ولكن لأمر أخطر. الرسالة التي أرسلها عبد القادر كانت موجهة لشخص تربطك علاقة عمل معه اسمه نعيم الوزان ويبدو أنه قد بدأ يتحرى عن أمر هذه الرسالة و كما أخبرتك في الهاتف قد توصل إلى علاقتك بعبد القادر و شراكتك معه في الهرم الذهبي.

-" نعم و لكني أؤكد لك أن..."

-"مهلا فلم أكمل حديثي بعد. لو أن المسألة وقفت على هذا الحد لكان الأمر هينًا ولكن ما أثار قلق مجموعة بولدربرج هو التقرير الذي جاءنا عن نعيم الوزان. إنه حفيد خليل الوزان من جماعة الحسيني."

-" ماذا ! و لكن ألم ينته أمر تلك الجماعة منذ زمن بعيد منذ حادثة السفربرلك."

-" ربما كنا مخطئين في هذا الظن."

-" أو ربما الأمر مجرد صدفة، فنعيم رجل أعمال همه الآن الحصول على ترخيص الجوال في بلده. لا أعتقد أن له علاقة بمثل هذه الأمور."

-" صدفة! أنت تقول صدفة! مشكلة البعض أنهم يعيلون الكثير من الأمور على مبرر الصدفة. أتعرف أن الذي أبقانا عبر هذه القرون و جعلنا نصل إلى ما وصلنا إليه اليوم مما كان

أسلافنا يحلمون به هو أننا كنا نخلق الصدف فنتحكم بها و لا نجعلها هي التي تتحكم بنا. نحن نصنع الأحداث عبر سنوات من التخطيط و الترتيب و نجعلها تبدو للآخرين كما لو أنها مجرد صدف فيكون هذا الظن هو سبب هلاكهم. الآن أنت تقول لي أن علاقة نعيم حفيد خليل بعبد القادر قد تكون مجرد صدفة! لن أسمح بأن تقع الجماعة فريسة لمثل هذا الاعتقاد والذي إن أثبت خطأه قد يشكل تهديدًا لنا لا يقل عن التهديد الذي شكلته في يوم من الأيام مجموعة الحسيني. إذا كان لعبد القادر بنوزّاني صلة بجماعة الحسيني أثناء حياته، فهذا ليس له غير معنى واحدًا."

- " أن الجماعة لم تتقهقر كما كنا نعتقد." ردد فؤاد و قد أدرك الآن السبب وراء الاجتماع المفاجئ لمجموعة بولدربرج.

☆ ★ ☆

27

كان الطقس جميلاً. و النسمة الباردة التي في الأجواء كانت تشعر نعيم براحة لم يستشعرها منذ زمن. لم يشهد نعيم طقساً جميلاً في المدينة المنورة يضاهي جمال طقس فجر اليوم. صلى ركعتي تحية المسجد النبوي في الروضة الشريفة. تذكر حديث الرسول ﷺ "ما بين بيتي و منبري روضة من رياض الجنة". ها هو يصلي في روضة من رياض الجنة. قام من موضعه ثم اتجه يسارًا إلى المبنى الذي يحيط بقبر الرسول ﷺ و بجواره صاحبيه أبو بكر و عمر. غريب... أين الجنود؟ كان المكان خال على غير العادة. بل لم يكن هناك أحد سوى نعيم. سلم على الرسول ﷺ ثم على أبي بكر الصديق و عمر بن الخطاب... ذهب إلى بقيع الغرقد بجوار المسجد. ألقى السلام على قبر أبيه عبد الله ثم اتجه إلى قبر جده خليل ولكنه لم يجد القبر. هل دفن جده في البقيع؟ سمع المؤذن ينادي لصلاة الفجر فوجد نفسه يؤدي الصلاة في مسجد قباء، أول مسجد أسس على التقوى. كان المكان ممتلئًا بالمصلين فصلى

في الساحة المكشوفة و كان نسيم المدينة يزيد من خشوعه في الصلاة مع كل لمسة يلمسه النسيم لجسمه. فرغت الصلاة وخلا المسجد من المصلين و بقي نعيم يقرأ القرآن. كان يقرأ من سورة البقرة. ظل يقرأ حتى فرغ من آية الكرسي ثم توقف. ما هذا الصوت؟ صوت لم يسمعه من قبل و لكن به ألفة غريبة يناديه. ولكن الصوت آت من خارج المسجد. تتبع نعيم الصوت الذي كان يأتي من أحد البساتين التي بجوار مسجد قباء. هذا البستان ليس بغريب عليه. كان الصوت مازال ينادي. حتمًا هو قادم من داخل هذا البستان المليء بنخل المدينة. و جد نفسه يدخل متجهًا نحو الصوت الذي لم يعد ينادي ولكنه أصبح الآن يعيد قراءة نفس الآية من سورة البقرة.

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

اقترب نعيم من صاحب الصوت الذي كان يردد هذه الآية. كان يجلس تحت إحدى نخلات البستان. نظر الرجل إلى نعيم ثم إبتسم. إنه يشبه صورة جده خليل... بل هو جده خليل!

استيقظ نعيم من نومه وكان صوت المؤذن من جواله ينبه لصلاة الفجر. قام من سريره ثم نظر إلى القرآن الذي بجواره.

ومضت عيناه و أخذت دقات قلبه تتسارع. "هل يمكن أن يكون المقصود هو..." قلّب في صفحات القرآن حتى و صل إلى الآية التي كان يقرأها جده في المنام. كانت الآية رقم 256 من سورة البقرة، ثاني سور القرآن البالغة 114 سورة !

رحم الله جدك خليل 256- 114/2

☆ ★ ☆

28

عام 1908

قص خليل على الشيخ أبوبكر الحسيني ما شاهده الليلة الماضية. أخبره عن المجسم الهرمي في قصر طلعت باشا والآخر الموجود في قصر الضيافة بعينه المطلة على حائط به باب سري و كيف استطاع أن يفتح الباب الذي قاده إلى تلك الجماعة الغريبة و قائدهم الذي كان يتحدث بلغة غير مفهومة له. أخبره عن شكه في طلعت باشا و يوري بك كوهين بأنهما يرتبا لأمر ما له علاقة بحركة الإتحاد و الترقي. ظل الشيخ أبوبكر يستمع إلى خليل بتمعن حتى فرغ.

- "خليل ما قلته لي أمر جد خطير، و هذه الجماعة السرية و علاقتها بطلعت باشا أمر يثير الريبة، و لكني أفضل أن نؤجل الحديث في هذا الموضوع حتى يأتي ضيف أريدك أن تقابله."

- "ومن يكون هذا الضيف؟"

- "ستعرف عما قريب، و لكن قبل أن يأتي وددت أن أفاتحك في موضوع قد لا يقل أهمية." قال الشيخ أبوبكر فصمت قليلاً ثم أكمل. " منذ أن تعرفت عليك في القدس قبل عشر سنوات

وسمعتك تتحدث عن زيارتك لباريس و ما شاهدته بخلاف ما هو موجود في العالم الإسلامي من تطور حضاري متمثلاً في المدارس و الجامعات و المكتبات و المستشفيات وغيرها من مظاهر الرقي الذي افتقدناه بعدما كنا في الماضي نحن المصدرين له...بعدما استشعرت في كلامك الحرقة في ما وصلنا إليه و الرغبة الصادقة في تحسين الحال، أخذت أتتبع أخبارك عن بعد و كم كانت سعادتي و أنا أسمع عنك أخبارًا كانت تؤكد حدسي فيك."

-" أشكرك على هذا الإطراء ولكن ما أنا سوى تلميذ تلاميذك." قال خليل و قد شعر بالخجل من كلام الشيخ أبوبكر.

-"أعتقد أنك مستعد الآن لكي تستمع إلى الإجابة على الكثير من التساؤلات."

صمت الشيخ أبوبكر قليلا كأنه يعطي الفرصة لخليل لكي يستجمع كامل تركيزه ليستوعب ما هو على وشك الإفصاح عنه.

-" لقد رسى الله عز و جل قاعدة أساسية في حركة تغيير الشعوب مفادها أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. و الإنسان لا يتغير حتى يكون راغبًا في هذا التغير و على أتم

استعداد لبذل كل ما بوسعه من أجل التغيير إلى الأفضل. وهذا الأمر لا ينفي وجود من لا يريدنا أن نحسن أمورنا و نتحول إلى الأفضل و على استعداد لبذل ما بوسعه لكي نظل على حالنا هذا لأن مصلحته تكمن في ذلك. و إذا نظرت إلى الأمور بعين مجردة ستجد في نهاية الأمر أن كل شعب و كل جماعة تبحث في المقام الأول عن مصلحتها و إن كان ذلك على حساب الباقي. لذلك تعلمت أن من الأجدى أن نحاسب أنفسنا قبل أن نبدأ في محاسبة الآخرين. فالحال الذي وصلت إليه أمتنا من هوان و ضعف و تخلف حضاري نحن المسؤولون عنه في المقام الأول، و إن لم نفعل شيئا فتأكد أننا سنحاسب على تخاذلنا هذا."

-" أتفق معك في كل ما تقول ولكن ما بوسعي أنا و أنت أن نفعل و نحن مع الأسف قلة في هذا الزمان."

-" تذكر يا خليل أن **كل نهضة شهدها الإنسان بدأت بقلة من الناس حملوا همّ أمتهم.** ألم يبدأ الإسلام بالقلة؟ النهضة التي أنجبت صلاح الدين بعد عهد من الإنحطاط ألم تبدأ بالقلة؟ و كم من قلة مع الصبر و الإخلاص في العمل أصبحت كثرة. و مع ذلك نحن اليوم بفضل الله أكثر من مجرد قلة."

-" نحن " ردد خليل " و من تقصد بنحن؟"

- " هذا هو الأمر الذي وددت أن أفاتحك فيه. " مرة أخرى صمت الشيخ أبوبكر قليلا ثم سأل خليل " هل سمعت بالعروة الوثقى؟ "

- "نعم هي الصحيفة التي أسسها الشيخ جمال الدين الأفغاني مع الشيخ محمد عبده في باريس. "

- " هذا صحيح، و لكن العروة الوثقى أكثر من ذلك بكثير فالصحيفة لم تكن سوى الواجهة. "

- " واجهة لماذا؟ " سأل خليل و قد بدت عليه الحيرة.

- "واجهة لحركة أسسها الشيخ جمال الدين من أجل بث النهضة في أمة تهاونت وتقاعست عن أداء واجبها. أصبح الفرد فيها جاهلاً و الفقيه مجرد ناقلاً. "

- " ولكني لم أسمع قط عن حركة أسسها الشيخ جمال الدين لهذا الهدف. "

- " أنت لم تسمع بها لأنها لم تعلن و لا يعلمها إلا قلة من المنتمين إليها حتى أن الكثير ممن يعملون تحت لواء العروة الوثقى قد لا يدركون ذلك. "

- " هل تتحدث عن جماعة سرية أنشأها الشيخ جمال الدين الأفغاني؟ "

- " نعم جماعة سرية هدفها بث روح النهضة في العالم الإسلامي ثم تطورت ليصبح هدفها أيضا التصدي للأخطار

التي باتت تحيط بنا كخطر انتزاع القدس من قبل الحركة الصهيونية. "

- " لا أفهم، فهذه الأهداف يتفق عليها الكثير من المسلمين بمن فيهم السلطان عبد الحميد الثاني، فما الداعي للسرية والكتمان؟ "

- " لأن هناك عناصر من الداخل و من الخارج ممن لا تريد أن يكون هناك وجود لمثل هذه الجماعة و هي على أتم الإستعداد للقضاء عليها إذا علمت بوجودها. هذا ما أدركه الشيخ جمال الدين. "

- " و لكن ماذا عن السلطان عبد الحميد؟ فهو يرغب في الإصلاح فلماذا لم يتم التعاون معه؟ "

- " و من قال لك أننا لم نحاول، فالجامعة الإسلامية التي يتبناها اليوم السلطان هي من بنات أفكار الشيخ جمال الدين. و لكنه أدرك بعد تجواله في مختلف أقطار العالم الإسلامي أن السلطان مع الأسف لن يستطيع أن يصلح ما قد أفسده الدهر. تماما مثلما بدأت أدرك أنا اليوم أن السنوات القادمة ستكون هي الأسوأ و أن عصب الأمة الإسلامية... الخلافة...هي في طريقها إلى الزوال. "

- "ماذا!" صرخ خليل و قد فجع مما سمع و لم يخطر أبدًا على باله.

- " نعم، الأمور هي كما قلت لك ولكن لا تدع اليأس يملأ

قلبك، فالغلبة هي لنا في نهاية الأمر و إن لم نشهدها نحن في حياتنا، و لكن يكفينا فخرا أن نكون نحن نواة الإصلاح الذي سيشهده أحفادنا."

كان للكلام الذي سمعه خليل من الشيخ أبوبكر وقعا كالصاعقة. و بالرغم من محاولته لإقناع نفسه بأن كلام الشيخ أبوبكر قد يحمل الكثير من المبالغة إلا أنه في قرارة الأمر كان قد أدرك أن ما يقوله الشيخ هو الصواب.

في هذه الأثناء دخل الخادم ليعلن عن مجيء الضيف المنتظر.

- "لقد حضر عبدالله المؤمن في الوقت المناسب." قال الشيخ أبوبكر و هو ينظر لخليل. "فهو الشخص الأنسب لإكمال باقي الحديث و إلقاء الكثير من الضوء عن جانب مهم من عملنا و الذي ستكون أنت أحد دعائمه."

- "أنا تحت امرك، و لكن من هو عبدالله المؤمن فلم أسمع به من قبل؟"

- "و لكنك تعرفه جيدا فقد سبق أن التقيت به."

- "متى و كيف؟"

ما كاد يسأل خليل حتى أتته الإجابة بدخول الضيف المرتقب الذي تعرف عليه على الفور. فلم يكن عبدالله المؤمن سوى يوري بك كوهين!

☆ ★ ☆

29

كان الذهول واضحًا على طلعت و هو يستمع إلى ما توصل إليه نعيم من فك لغز تلك الأرقام التي كانت في رسالة الدكتور عبد القادر. لم تكن حيرة طلعت فقط في سبب الإشارة إلى الآيات القرآنية و لكن في كيفية وصول نعيم إلى المعنى المراد. رؤية يراها شخص لتكشف جانبًا من أمور الحياة! كان يسمع عن مثل هذه الأمور من والدته و من خالاته عن كيف أنهم في أكثر من مرة عندما احترن في أمر من الأمور جاء الحل في صيغة حلم حلمنه، و لكنه كان ينظر إلى مثل هذه الأمور على أنها لا تعدو الخرافة. و ها هو نعيم يحدثه عن أمر لا يختلف عما كان يسمعه من قبل والدته و خالاته فكان لا يملك إلا أن يضحك في سره ممن كن يعتقدن في مثل هذه الأوهام، أما الآن و هو يستمع إلى رجل الأعمال الناجح ذي الثقافة الواسعة فلا يعرف ماذا يظن و كيف يتجاوب مع هذا الخبر. فما كان من أمره إلا أن يتقبل ما سمعه من نعيم، فحلمه قد أتى بنتيجة!

-"ولكن ما المقصود بذكر هذه الآيات بعد اسم جدك واسم الدكتور عبد القادر و بهذه الطريقة المبهمة ؟" سأل طلعت و ما زال يشعر بشيء من الريبة.

-"هذا ما كان يسيطر على تفكيري منذ صلاة الفجر... من الواضح أن الدكتور عبد القادر كان يشعر بأن هناك من يراقب رسائله و لهذا أرسلها بهذا الشكل المبهم. كما سبق لك و أن قلت فالمسألة أكبر بكثير مما كنا نتخيل، و هذا ما قد تأكد لي من خلال مقابلتي مع سوزي بدران."

-" لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوط و يؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها و الله سميع عليم." ردد طلعت الآية ثم سأل نعيم. "هل توصلت إلى المقصود بذكره لهذه الآية بالتحديد بعد اسم جدك خليل؟"

-" الدكتور عبد القادر كان دائمًا ما يربط الماضي بالواقع. كان دائما ما يقول أن **أحداث اليوم هي وليدة الماضي** و إذا أردنا أن نقرأ التاريخ فما علينا إلا أن ننظر إلى الواقع و إذا أردنا أن نفهم الواقع فما علينا سوى أن نقرأ التاريخ... ذكره لجدي قد يكون له علاقة بأمر ما يمس واقعنا اليوم و هذه الآية هي الرابط."

-"ما زال هذا الرابط غير واضح لي."

-" العروة الوثقى." قال نعيم ثم صمت.

-"العروة الوثقى." ردد طلعت بتفكر ثم تنبه إلى ما يشير إليه نعيم. " هل تقصد الصحيفة التي أنشأها الشيخ جمال الدين الأفغاني مع الشيخ محمد عبده عندما كانا في منفاهما في باريس؟"

-" هي أكثر من مجرد صحيفة فبعض المؤرخين الذين تناولوا سيرة الشيخ جمال الدين تحدثوا عن جماعة أنشأها بنفس المسمى و لكنها لم تستمر و انتهت بموته. و البعض قال أنه لم يكن هناك وجود لمثل تلك الجماعة. أذكر أن الدكتور عبد القادر في أكثر من مرة تحدث عن هذا الموضوع و لكن بشكل مقتضب. يبدو أنه في الرسالة التي أرسلها إلي أراد الإشارة إلى هذا الأمر لسبب قد يتعلق بجدي خليل."

-" جماعة العروة الوثقى؟" سأل طلعت باستغراب " بالرغم من اهتمامي بشؤون الجماعات السرية إلا أني لم أسمع قط بهذه الجماعة. أتذكر ما هي المراجع التي تحدثت عن إنشاء الشيخ جمال الدين لمثل تلك الجماعة؟"

-" لن تفيد في شيء هذه المراجع، فهي لم تذكر سوى أسطرا قليلة عن هذا الموضوع... الشيخ جمال الدين كان رجلاً

شديد الغموض كما كان شديد الذكاء لا أستبعد أن يكون قد أنشأ جماعة في حياته و قد حلت بعد مماته لأنها لم تجد شخصًا في مكانته و بقدراته يقودها."

-"أو ربما استمرت دون أن يعلم بها أحد." قال طلعت و قد بدأ حسه الصحفي يطغى. "ماذا لو أن الشيخ جمال الدين قد أنشأ بالفعل جماعة سرية لمناهضة بعض الجماعات التي بدأت تغزو العالم الإسلامي في ذلك الوقت خصوصًا بعدما تبين له خطر الماسونية التي كان في وقت من الأوقات منتميًا لها. ماذا لو أن هذه الجماعة لم تتفتت بموت منشئها و لكنها استمرت إلى اليوم؟ ماذا لو أن جدك كانت له علاقة بتلك الجماعة وبطريقة ما اكتشف الدكتور عبد القادر هذا الأمر. ألم تخبرني بأنه حدثك في لقائكما الأخير عن أمور تخص جدك أنت لم تكن تعرفها كان هو قد اكتشفها في زيارته لتركيا؟"

-"هذا صحيح، ولكن علاقة جدي بجماعة سرية أنشأها الشيخ جمال الدين هذا أمر يصعب التثبت منه."

قام طلعت من جلسته و أخذ يمشي نحو النافذة و هو يتأمل ما دار من نقاش محاولاً أن يستخلص منه خلاصة قد تفسر كل ما حدث.

-"ماذا عن المقصود من الآية التي تلت اسم الدكتور عبد

القادر؟ و من الناس من يقول آمنا بالله و باليوم الآخر و ما هم بمؤمنين...هذه الآية تشير إلى المنافقين أليس كذلك؟"

-" هذه الآية هي من أوائل ما نزل على الرسول عليه الصلاة و السلام عندما هاجر إلى المدينة. فهي تتحدث عن جماعة لم يصادفها الرسول من قبل و هي كما قلت أنت جماعة المنافقين التي كان خطرها على المسلمين أكبر من خطر قريش واليهود."

-" تقصد لتشكيلهم ما اصطلح عليه اليوم بالطابور الخامس."

-" بالفعل **فعدو خفي أخطر بكثير من عدو ظاهر.**"

-"فهل تعتقد أن الدكتور عبد القادر أراد أن يخبرك بأنه كان من ضمن طابور خامس ما."

صمت نعيم دون تعليق على ما قاله طلعت الذي فجأة خطر على باله سؤال كان ينوي سؤاله لنعيم بعد زيارتهما لزوجة الدكتور أحمد عبد الوارث.

-"نعيم، أتذكر ذلك الأمر الذي جمع الدكتور أحمد عبد الوارث مع الدكتور عبد القادر في المدينة...سفربرلك.. على ما أتذكر، كأني شعرت أنك فهمت ما المقصود بذلك الأمر".

- " السفربرلك، نعم هذا أمر معروف لدى أهل المدينة المنورة، فهو المصطلح الذي كان يطلقه كبار أهل المدينة على الحرب العالمية الأولى."

- " الحرب العالمية الأولى؟" سأل طلعت.

- " هو مأخوذ عن كلمة تركية، ولكن أهالي المدينة كانوا يستخدمون هذا المصطلح للإشارة لأمر هام آخر قد حدث في زمن الحرب العالمية الأولى، فقد كانت المدينة في ذلك الوقت تقاوم هجمات حملة الشريف حسين بمساعدة الإنجليز في ظل الثورة العربية الكبرى التي قادها ا مع أولاده الشريف فيصل والشريف عبد الله و الشريف علي."

- " أليست هي التي شارك فيها لورنس العرب."

- "بالضبط... لقد قاومت المدينة بضراوة حتى بدأت تنفذ المؤونة فأمر القائد التركي بتهجير أهالي المدينة إلى الشام وتركيا حتى تكفي المؤونة المقاتلين، و لتفادي تفشي المجاعة في الأهالي."

- "أين كان جدك خليل في ذلك الوقت؟"

بدأ نعيم يدرك إلى ماذا كان يرمي طلعت .

- "جدي بقي في المدينة، و عندما عادت جدتي مع أبي بعد انتهاء الحرب إلى المدينة المنورة قيل لها أنه قتل، ولكن لم يعثر له عن جثة."

في هذه الأثناء رن جوال نعيم و ظهر على شاشته اسم مصطفى نديم.

- "سلام عليكم يا مصطفى هل يمكن لك الاتصال بي لاحقًا أنا مشغول..."

- "عفوًا أبو عبد الله أنا آسف على المقاطعة و لكن الأمر لا يتحمل التأجيل، لا بد أن تأتي إلى الرياض في أقرب وقت. لقد قمت بالحجز لك على طائرة المساء." تحدث مصطفى بصوت مضطرب لم يألفه نعيم منه من قبل.

- " خيرًا. أكل شيء على مايرام؟ "

- " الشيخ علي السليمان انسحب من تكتلنا و سحب معه عددًا من المولين."

- " كيف حدث ذلك و لماذا؟" سأل نعيم وقد استاء لهذا الخبر الذي كان يعني فشل مشروع تكتل الاتصالات المزمع المنافسة به في أخذ ترخيص الجوال بالسعودية.

- "لا أدري، فالخبر كان مفاجئًا لنا جميعًا خصوصًا أنه لم يبدِ أي سبب واضح لهذا الإنسحاب."

- " و أين سعد العثمان الآن؟"

- "لقد سافر لتوه إلى لندن لمقابلة الشيخ علي والاستفسار منه شخصيًا و قد طلب مني أن أحيطك بما جرى لكي تحضر فورًا إلى الرياض."

أنهى نعيم مكالمته وقد لاحظ طلعت على وجهه علامات التوتر.

- " نعيم، أكل شيء على ما يرام؟" سأل طلعت مبديًا اهتمامه.

- "مشاكل في العمل ستضطرني للسفر فورًا إلى الرياض."

صمت نعيم متأملاً ثم أضاف "هذا أمر غريب...لا يمكن أن يكون مجرد مصادفة."

- "ماذا تقصد؟ مشاكل عملك هذه لها علاقة مع ما حدث للدكتور عبد القادر؟" سأل طلعت بتعجب.

- "لست متأكدًا...ولكنها مصادفة غريبة...على أية حال قد آن لي أن أعود للسعودية بغض النظر عن المكالمة التي تلقيتها...أعلم أن الأمر قد يبدو لك غريبًا طلعت ولكني أظن أن المشوار يجب أن أكمله بمفردي في المدينة المنورة...لدي شعور أنه هناك تكمن الإجابة عن باقي التساؤلات."

نظر طلعت إلى نعيم و تعبيرات وجهه تتساءل عن المقصود بهذا الكلام.

- "الرؤية التي رأيتها...أتذكر تفاصيلها كأنها حدثت لي بالفعل...الأمر له علاقة بجدي خليل، لا أدري كيف و لماذا ولكن حديث الدكتور عبد القادر عن جدي خليل في آخر لقاء لنا ثم

ذكره لجدي في الرسالة بجوار أية العروة الوثقى...الرؤية التي رأيتها...نعم جدي خليل هو المحور، إن استطعت أن أكتشف ذلك الأمر الذي يخصه، فأنا واثق بأن الباقي سينجلي تباعًا، ولكن على أولا البحث في المدينة المنورة."

تفهم طلعت وجهة نظر نعيم ثم بشكل تلقائي مد يده نحوه مصافحًا.

- " نعيم، لقد تشرفت بمعرفتك. و بالرغم من أننا لم نلتق سوى منذ أيام قليلة إلا أنني أشعر كما لو كنت أعرفك منذ زمن. أنت مثلي تبحث عن الحقيقة...تلك الحقيقة الغائبة المغيبة عن الكثيرين، و هذا مشوار شاق قد يكلف صاحبه الكثير و ها أنت قد بدأت تدفع ثمن بحثك...ولكن تأكد أن **أي ثمن قد يدفعه الإنسان من أجل الوصول إلى الحقيقة فهو ثمن بخس**...نعيم إن احتجت إلى أي شيء أنا دائمًا في الخدمة."

تأثر نعيم لكلمات طلعت فلم يمتلك إلا ان يعانقه مبديًا إمتنانه العميق. شكره على مساعدته له في الأيام الماضية وعلى دعوته له في منزله على الغداء و على كلماته الرقيقة المعبرة.

شعر نعيم أنه يفارق صديقًا قديمًا و ليس مجرد صحفيًا تعرف عليه منذ أيام في ظروف غامضة تركته في حيرة من أمره. ظروف ما كان يعتقد أنه سيصادفها في حياته.

☆ ★ ☆

30

وضع سعد العثمان حقائبه في فندق الماريوت بلندن ثم اتجه نحو منطقة "بايسواتر" إلى عمارة ذي طراز فيكتوري مطلة على حديقة "الهايد بارك". صعد إلى الطابق الثالث حيث شقة علي السليمان الذي كان قد تواعد معه لمناقشة أسباب انسحابه المفاجئ من التكتل التجاري و الذي بذل فيه هو و نعيم جهدًا كبيرًا حتى وصل إلى ما وصل إليه من شبه كيان قائم لن تستطيع أية جهة أخرى بمفردها منافسته.

طرق على الباب ففتحت له خادمة فلبينية و أدخلته إلى صالة الضيوف حيث كان علي السليمان في انتظاره و لكن ليس وحده. تعرف سعد على الفور على الرجلين الحاضرين بجانب علي السليمان فقد سبق وأن التقى بهما في عدة اجتماعات لكونهما من أهم المؤسسين في شركة الإتصالات المزمع قيامها في السعودية.

- " حياك الله شيخ علي." صافح سعد علي السليمان ثم صافح كمال أغلو و فؤاد شوكت و قد استغرب من وجودهما حيث لم يتوقع أن يكونا طرفًا في موضوع لقائه مع علي السليمان.

-" أهلا بك أخ سعد، لقد طلبت من السيد كمال و السيد فؤاد الحضور ليشرحا لك بعض التطورات لكي تكون الأمور واضحة." بدأ علي السليمان الدخول في الموضوع مباشرة دون مقدمات.

-" شيخ علي، أي تطورات هذه التي جعلتك تنسحب على هذا الشكل أنت و كبار المولين بعد أن شبه أتممنا كل شيء بفضل جهود نعيم على مدار السنة الماضية."

فجأة تدخل كمال و أخذ بزمام الحديث بمجرد ذكر إسم نعيم و كأن اسمه قد أثار حفيظته.

-" أنا أعلم أنه تربطك علاقة صداقة و شراكة عمل مع نعيم و لكن دعك منه الآن. نحن على صدد إنشاء شركة إتصالات و تكنولوجيا رقمية ضخمة ستغزو جميع دول الشرق الأوسط وستكون هي الشركة الأكثر سيطرة في هذه الأسواق. الأمر قد تجاوز الآن مجرد ترخيص ثالث للجوال في السعودية. ستتكون هذه الشركة برأس مال ضخم مما سيجعلها من كبرى شركات التقنية في العالم و سنطرح أسهمها في بورصة دبي العالمية وسوق الناسداك بأمريكا، و لتقديرنا لكفاءتك المالية والإدارية فأنا أعرض عليك الدخول شريكًا في رأس المال...هذه فرصة يتمناها كل رجل أعمال، بل أن لعابهم يسيل لأقل من هذه

الفرصة. فأنا أضمن لك أن في غضون سنوات قليلة سيتضاعف رأس مالك عشر مرات على أقل تقدير إن لم يكن أكثر."

-" ولكن؟" قاطع سعد كمال بسؤاله المفاجئ.

-" عفوًا ماذا تقصد؟"

-" كنت أتساءل و لكن ماذا عليّ أن أفعل لكي أنال هذه الجائزة الثمينة؟ هناك ثمن أليس كذلك فلا أعتقد أن رجل أعمال في مكانتك أنت و معك فؤاد شوكت و علي السليمان بحاجة لي مهما كانت براعتي المالية و الإدارية."

إبتسم كمال و أعجب بصراحة سعد الذي أراد الدخول في فحوى الموضوع دون مضيعة الوقت.

-" حسنًا...الثمن هو تصفية جميع أعمالك مع نعيم الوزان. و أن لا تربطك معه أي علاقة تجارية في أي مجال لا الآن و لا مستقبلاً."

فوجئ سعد مما سمع لدرجة أنه لم يصدق في بادئ الأمر ما قاله كمال فنظر إلى علي السليمان وقد بدأ يدرك سر انسحابه المفاجئ من التكتل.

-" ولكن ما علاقة هذا العرض بشراكتي مع نعيم... ولم لا تدخله في هذه الشركة فإن كنت تبحث فعلاً عن القدرة الإدارية فلن تجد أحسن منه. حتى اسأل الشيخ علي هو يعرف نعيم جيدا مثلي."

-" سيد سعد أنصحك أن تهتم بنفسك و أن تترك نعيم لشأنه فهذه الفرصة التي أعرضها عليك لن تتكرر."

نظر سعد إلى علي السليمان ثم سأله.

-" ألهذا السبب انسحبت؟ لقد عرض عليك كمال نفس العرض أليس كذلك؟"

شعر علي السليمان بحرج من سؤال سعد ، و بشيء من التردد قال :

-" سعد...بزنس إز بزنس...كما قال لك الأخ كمال هذه فرصة لن..."

لم يشأ سعد أن يسمع المزيد فقد استمع بما فيه الكفاية فقام متجها نحو باب الشقة، وقد أصاب علي السليمان الذهول من موقف سعد الذي لم يقبل حتى التفاوض في الأمر و فضل الإنصراف تاركًا وراءه فرصة عمره التي كانت ستضاعف ثروته أضعافًا مضاعفة في غضون سنوات قليلة.

-" سعد انتظر.. الكلام أخذ و عطى." أراد علي السليمان أن يلحق بسعد و لكن كمال أغلو أوقفه.

-" دعه..." قال كمال باستهزاء " فسيلحق به ما سيلحق بنعيم...لقد اختار الجانب الذي سيقف معه، و عليه أن يدفع ثمن إختياره."

☆ ★ ☆

31

أضيئت إشارة ربط الأحزمة بالمقاعد و جاءت المضيفة لكي تتأكد أن جميع الركاب قد ربطوا أحزمتهم.

-" سيد نعيم الرجاء ربط حزامك فالطائرة على وشك الهبوط." قالت المضيفة و على وجهها ابتسامة خجل. نظر نعيم إليها فكانت هي نفسها التي طلبت منه ربط الحزام أثناء هبوط الطائرة في مطار محمد الخامس بالدار البيضاء. لوهلة ظن نعيم أن ما مر به من أحداث كان مجرد حلم حلمه أثناء الرحلة و أن الدكتور عبد القادر لم يمت بل ينتظره في منزله بحي السويسي في الرباط و أنه لا توجد رسالة و لا مؤامرة و لا جماعات سرية و لا مشاكل في العمل و لا سر كبير يخص جده خليل، هناك فقط رجل يكن له عميق التقدير درسه في يوم من الأيام مادة التاريخ ينتظره في منزله ليقضيا معًا أمسية ثقافية جميلة، و لكن سرعان ما تبدد هذا الظن عندما أعلن قائد الطائرة عن وصول الرحلة إلى مطار الملك خالد الدولي بالرياض.

لم يكن كل ما جرى لنعيم مجرد حلم قد حلمه، بل كان واقعًا يحياه بكل تفاصيله و لو أن في بعض الأحيان قد ينقلب الحلم إلى الواقع.

☆ ★ ☆

هبطت الطائرة و كان في ساحة الإنتظار بالمطار مصطفى نديم. لم يكن مصطفى فقط مدير مكتب نعيم بل كان أيضًا من أصدقائه القلائل و مثله في ذلك كمثل سعد العثمان، و كان السبب في قلة الأصدقاء انشغال نعيم الدائم في العمل و السفر مما جعل حياته الإجتماعية محدودة في نطاق رفاق العمل. حتى الزواج لم يكن لنعيم نصيبًا فيه من كثرة انشغاله. و لو أنه منذ فترة خطب فتاة أعجبته كان قد رآها في أبحر بشمال جدة. كانت رائعة الجمال، في حياته نعيم لم يرى امرأة في جمالها وكأنها حورية من حور قصص ألف ليلة و ليلة. سأل عنها فعرف أنها من أحد الأسر الثرية و المعروفة في جدة و لكن أبويها كانا منفصلان منذ أن كانت صغيرة و كل واحد منهما قد بدأ حياة جديدة تاركًا الفتاة لتعيش مع خالتها الغير متزوجة و التي كانت هي بدورها سيدة أعمال معروفة في المجتمع الجداوي. لم تكن الظروف الاجتماعية للفتاة مشجعة لوالدة نعيم و لكنها رضخت لرغبة ولدها العارمة بالارتباط بأجمل فتاة رآها في حياته،

ولكن الخطبة لم تدم سوى شهر ثم قام نعيم بفسخها دون أن يذكر السبب لأي مخلوق، و مضى قدمًا في حياته و كأن شيئًا لم يكن.

لم يرتبط نعيم الوزان بأي امرأة بعد ذلك.

☆ ★ ☆

-" مصطفى..خذنا إلى المقهى المعتاد في شارع التحلية." قال نعيم و هو يركب سيارة مصطفى.

-" ألا تود أن ترتاح بعد الرحلة فأمامك غدًا يومًا حافلاً."

-" لا..لست متعبًا . أود أن نناقش ما حدث." قال نعيم لمصطفى الذي انطلق بالسيارة في الخط الدائري الشرقي متجهًا نحو مخرج رقم عشرة.

-" ما كان بودي أن أكون ناقل الأخبار السيئة... ولكن مع الأسف ما حدث هو كما أخبرتك على الجوال. أرسل إلينا الشيخ علي السليمان خطابًا ليخبرنا بأنه سوف ينسحب من اتفاقية الشراكة و على استعداد لدفع كافة التعويضات دون أن يبدي سبب انسحابه. و بعدها بنحو ساعة جاءتنا خطابات من باقي الشركاء و الممولين."

-" تحمل نفس المضمون؟"

- "نعم و كأنها نسخة من الخطاب الأول." صمت مصطفى قليلاً ثم أضاف بتردد. "ولكن هذا ليس كل ما في الأمر."

- "ماذا تقصد؟" سأل نعيم و قد شعر أن مازال هناك خبر سيء كان مصطفى لا يود البوح به بعد.

- "عدد كبير من الموظفين في مكتبنا الرئيسي و في فرع الهند قدموا استقالتهم. حقيقة لا أدري مالذي يحدث، و كأننا في سفينة تغرق و الكل يريد الهرب و النجاة."

أدرك نعيم أن ما يجري ليس له سوى تفسيرًا واحدًا. هناك من يريد أن يرسل له رسالة مفادها أن يدنا ستطالك في أي مكان. لا شك أنه قد اقترب من خط أحمر ما كان ينبغي له الإقتراب منه.

- "حتى و إن غرقت السفينة فأنا لن أغرق بإذن الله، بل هم الذين سيغرقون." قال نعيم بصوت منخفض و كأنه يحدث نفسه.

- "عفوًا أبو عبدلله... ماذا تقصد؟" سأل مصطفى و قد اندهش مما قاله نعيم.

- "مصطفى... ما حدث للشركة من انسحاب علي السليمان و استقالة عدد من الموظفين المقصود به هو إفلاسي و القضاء على مستقبلي التجاري...تستطيع أن تعتبرها حربًا

اقتصادية كالتي تستخدمها اليوم الدولة القوية ضد الدولة الأضعف. فسلاح اليوم هو المال و الإقتصاد، فهما أكثر فاعلية و أعظم أثرًا."

- "و من هذا الذي يريد محاربتك؟ ماذا فعلت له؟" سأل مصطفى و هو يصف سيارته في موقف قد خلى لتوه أمام مقهى شارع التحلية.

خرج نعيم من السيارة دون أن يجيب على السؤال. لمح طاولة على الرصيف فذهب إليها. كان يريد أن يكمل نقاشه في الخارج ليستمتع بلفحات النسيم التي كانت تلطف جو الرياض الدافئ.

- "هل ما يجري له علاقة برحلتك الأخيرة إلى المغرب ومصر؟" سأل مصطفى مصرًا على الحصول على إجابة تفسر له الذي حدث.

- "سأخبرك فيما بعد كل شيء، ولكن الآن أريدك أن تنتبه إلى ما سأطلبه منك. غدًا ستطلب من المدير المالي للشركة أن يبدأ هو و المحامي في إجراءات تصفية نصيبي من الشركة."

- "ماذا! أبو عبدالله لا يجب...."

لم يمهل نعيم مصطفى، الذي انزعج مما سمع، أن يكمل جملته .

-" مصطفى، لا يوجد حل آخر هذه هي الطريقة الوحيدة لإنقاذ الشركة من الإفلاس، فالمسألة كما رأيت في غاية الخطورة. نعم ستتلقى الشركة ضربة موجعة في بادئ الأمر و لكني واثق من أن سعد سيستطيع بمهارته أن يتجاوز الأزمة. أما أنا فعلي أن أصفي أغلب أعمالي... الظاهر منها على الأقل."

-" الظاهر منها." ردد مصطفى و قد تذكر كيف أن نعيم منذ نحو سنتين قد ساهم في مشروع تعليمي ترفيهي للأطفال عبر الإنترنت في ماليزيا، دخل في هذا المشروع مع مستثمر ماليزي كان قد تعرف عليه في الحج. الرجل كان قد خسر أغلب ثروته في الإنهيار الإقتصادي الكبير الذي شهدته جنوب شرق أسيا في نهاية التسعينات. لم يستطع الرجل أن يجد مستثمرا يثق به و يجازف معه في مثل هذا المشروع. ظل الرجل يحاول سنين عدة لأن يسوق لمشروعه و لكن دون جدوى حتى يئس فأصابته حالة من الإكتئاب خصوصًا بعد أن اضطر لكي يعمل موظفًا براتب محدود بعد أن كان هو صاحب عمل يوظف العشرات، فأخذ يتعاطى الكحول لكي يهرب من واقعه الأليم. ظل على حاله هذا مدة من الزمن حتى تعرض لحادث مريع ،في إحدى المرات التي ساق فيها و هو مخمور، كاد يودي بحياته و حياة زوجته. كانت هذه الحادثة بمثابة الصدمة التي جعلته يفيق من غيبوبة ضياعه

فعاهد الله أنه بعد خروجه من المشتشفى سيترك الخمر و يرضى بما قسمه له الله و قد أوفى بعهده و منذ سنتين استخدم المال الذي جمعه من عمله البسيط لتأدية الحج و هناك قابل نعيم الذي تأثر بقصته فقرر أن يشاركه في مشروعه القديم الذي وجد فيه عملاً إنسانيًا ومشروعًا استثماريًا قد يجني ثمارًا. كان مصطفى هو الشخص الوحيد الذي يعلم عن هذا المشروع.

-" أبو عبد الله. ما أخبار مشروع ماليزيا؟"

-" الحمد لله ، لقد أخبرني أنور منذ شهر أن الأمور تسير أحسن مما كنا نتصور. لقد بدأ الدخل يغطي المصاريف و نتوقع الربحية في الربع القادم."

-" إلى الآن لا أفهم ما الذي جعلك تدخل في مشروع مثل هذا."

ابتسم نعيم ابتسامة شعر مصطفى أنها تحمل وراءها معان كثيرة. هز نعيم رأسه ثم قال :

-" هذا المشروع هو الذي سأبني عليه ثروتي القادمة وسيكون بمثابة بداية جديدة كما كان بداية جديدة لأنور."

صمت نعيم قليلاً مسترجعًا ذكريات مضت ثم أضاف :

-" علمني أبي رحمة الله عليه أن **الإنسان إذا أراد أن يتسلق الجبال ليصل إلى قمته، فعليه أن لا يعتمد على**

حبل إنقاذ واحد، حتى لا يسقط إذا ما أنقطع ذلك الحبل." عاود نعيم الابتسام ثم أضاف. "ها هو حبل قد انقطع و لكني بفضل الله لن أسقط."

-"أبو عبد الله... ما الذي يجري؟" عاود مصطفى نفس السؤال و قد زاد شعوره بالقلق.

-"سأخبرك في الوقت المناسب ولكن ليس الآن، فيجب علي الذهاب إلى المدينة المنورة أولا، فهناك أمر يجب أن أنهيه وبعد ذلك سيكون لكل حادث حديث."

☆ ★ ☆

32

عام 1908

كان الذهول واضحا على وجه خليل الوزان كوضوح شمس صيف إستانبول، فآخر من كان يتوقع أن يكون الضيف الذي ينتظره الشيخ أبوبكر الحسيني هو يوري بك كوهين. نظر خليل على الفور إلى الشيخ أبوبكر و ملامح وجهه تتساءل عما يراه أمامه. أما يوري بك الذي دخل لتوه و لاحظ ذهول خليل فقد كانت ابتسامة عريضة مرسومة على وجهه و هو يستمتع بهذا المشهد الدرامي.

- "بما أن عبد الله قد حضر فسأفسح له المجال لشرح بعض الأمور و التي ستزيح الستار عما قد يخفى عليك." قال الشيخ أبوبكر لخليل و هو يشير ليوري أو عبد الله المؤمن بالتحدث.

- "أولاً السلام عليكم سيد خليل و أود الإعتذار لك عن إخفائي اسمي الحقيقي عنك، و لكنك بعد سماع ما سأقوله لك ستدرك عذري فنحن نمر الآن بمرحلة حرجة جدًا و شديدة الخطورة و لكن أكثر الناس لا يدركون. الدولة تتفكك و الخلافة لن تدوم و المؤسف هو أننا لا نستطيع فعل أي شيء."

أراد خليل أن يقاطع عبد الله ولكن الشيخ أبوبكر أشار إليه بالتريث.

-" نعم سيد خليل، ستستغرب صراحتي و لكن زمن المجاملات و النظرات الحالمة قد انتهى و آن لنا أن نرى الواقع على حقيقته لكي نحسن التصرف و لكن قبل ذلك دعني أسألك سؤالاً لكي يكون مدخل حديثي... هل سمعت عن يهود الدونمة؟"

-" يهود الدونمة؟ لا أظنني سمعت بهم."

-" أنت لست وحدك في هذا، فالكثيرون لم يسمعوا بهم بالرغم من كونهم هم الذين يديرون الدولة اليوم."

-" ماذا!" قال خليل غير مصدق ما يسمع.

-" نعم هذه هي الحقيقة الغائبة عن الكثيرين، ولكني إذا ذكرت لك أسماءهم ستدرك صدق ما أقول. ولكن دعني أشرح لك من هم يهود الدونمة...فهناك طائفة قديمة من طوائف اليهود معروفة بالسبئيين نسبة إلى شخصية أظنك سمعت عنها..عبد الله بن سبأ."

-" صانع الفتنة الكبرى."

-" نعم هو بعينه. لقد أدرك عبد الله بن سبأ أن الطريقة الوحيدة لكي يستطيع مقاومة المد الإسلامي الذي قضى على

نفوذ اليهود في المدينة المنورة و في خيبر و في اليمن هو أن يفعل ما فعله بعض أهل المدينة المنورة عند قدوم الرسول عليه الصلاة و السلام."

-" تقصد التظاهر بالإسلام."

-" نعم النفاق...فالعدو الخفي هو عدو قاتل، لأنه يستطيع أن يجهز ضربته القاتلة في وجودك دون أن تعلم...كان عبد الله ابن سبأ شديد الذكاء و كان يدرك أن المسلمين لن يقضى عليهم بهذه السهولة و لن يقضى عليهم في حياته، فكانت نظرته بعيدة بعد الأجيال. لقد انتشرت حركته عن طريق تلاميذه بشكل كبير و قد تضامنت معه بعض طوائف اليهود الأخرى من أبرزها طائفة تلمودية تدعى بالكبالة من أبرز كهنتها شخص سيلعب دورًا كبيرًا فيما بعد اسمه ساباتاي زيفي...أريدك أن تذكر ذلك الاسم جيدًا."

-" سابتاي زيفي؟" ردد خليل .

-" هذا الكاهن لم يدرك قواعد اللعبة في بادئ الأمر فقام بالمناداة بقيام دولة يهودية تحكم العالم عاصمتها القدس فكاد أن يقتل لولا تدخل بعض السبأيين فأقنعوه بالعدول عن دعوته إنقاذًا لحياته و التظاهر بالإسلام ففعل و قام بتأسيس هو وأتباعه فرقة من فرق السبأيين في الأناضول و شرق أوروبا عرفت بيهود الدونمة."

- " عفوًا.. " قاطع خليل " أنت قلت فرقة من فرق السبأيين. هل معنى ذلك أن هناك فرق أخرى؟"

- " بالتأكيد، مع مرور السنين أصبح للسبأيين فرق في كل بقاع الأرض، كل فرقة تعمل بشكل مستقل عن الأخرى و لكنها كلها تتبع كاهن أعظم لا يعرفه إلا رؤساء الفرق."

- " و من هو الكاهن الأعظم الآن و ما هي الفرق التي تمتثل له؟"

- " كما قلت لك لا يعلم شخصيته سوى رؤساء الفرق. أما عن هذه الفرق فهي كثيرة، البعض منها معروف لدينا و البعض الآخر مجهول. و لكن في أدبياتنا مذكورًا أن لبعض هذه الفرق نجاحات باهرة كسقوط الأندلس و الخلافة العباسية و مع غير المسلمين سقوط نفوذ الكنيسة الكاثوليكية في أوروبا."

- " كأنني سمعتك تقول... أدبياتنا... هل أنت منهم؟" سأل خليل و قد اعترته الدهشة مرة أخرى.

- " خليل، لعلي يجب أن أشرح لك أمرًا." هنا تدخل الشيخ أبوبكر، " منذ عدة سنوات في أحد زياراتي إلى إستانبول تعرفت على شاب يهودي من أسرة غنية كان يشعر بالوحدة و اليأس من حياته المترفة الخالية من أي معنى. و بالرغم من نشأته نشأة يهودية إلا أنه لم يشعر بالانتماء لأي دين بل وصل به الحال إلى إنكار وجود خالق لهذا الكون."

- " كان هذا الشاب في قمة شعوره باليأس حينما التقى بالشيخ أبوبكر الذي استطاع بحكمته أن يزيح الغمام عن عين ذلك الشاب و أن يغير مسرى حياته إلى الأبد." أكمل عبد الله الحديث.

- " هذا الشاب هو يوري كوهين." قال خليل و قد فطن لشخصية الشاب اليهودي المقصود في هذه القصة.

- " نعم... و لكني لم أشأ أن أعلن إسلامي حتى أمهد الأمر لأبي. و في أحد الليالي جاء إلى منزلنا في أنتاليا زائر لأبي لم أره من قبل عرفني عليه أبي، كان إسمه زيفي حائيم. مضى اللقاء دون أن أعيره أي إهتمام. و في أحد زياراتي لإستانبول لمحت نفس ذلك الرجل و هو يخرج من المسجد السليماني. في بادئ الأمر حسبته قد أسلم مثلي ففرحت و خطر على بالي أن أذهب إليه و أصارحه بإسلامي و أن أطلب منه أن يعينني بحكم صداقته مع والدي في مفاتحته بأمري و لكن ما أن لمحني الرجل حتى اصفر وجهه و أخذني على جنب و طلب مني بأن لا أخبر أحدًا عما رأيته. في البادئ حسبته يتحدث عن خروجه من المسجد وأنه مثلي لا يريد أن يعرف أحد من اليهود بشأن إسلامه و لكنني سرعان ما أدركت أنه كان يقصد العكس."

- " تقصد أنه كان من يهود الدونمة؟" سأل خليل

-" نعم...علمت بعد ذلك من أبي عن شأن تلك الفرقة و عن علاقته الوطيدة بهم و أنهم جميعهم ينتمون إلى جماعة السبأيين."

-" و ماذا عن زيفي حاتيم هل هو شخصية ذات نفوذ؟"

-" في حينها لا، و لكنه الآن أصبح من كبار قادة الإتحاد و الترقي و أحد وزراء البلاط... لقد التقيت أنت به..هو محمد جاويد باشا."

-" محمد جاويد باشا من يهود الدونمة!" ردد خليل و قد ذهل مما سمع.

-" ألم يخبرك عبد الله أن السلطة أصبحت في يدهم الآن. و هو ليس إلا فرد واحد من مجموعة كبيرة." قاطع الشيخ أبوبكر

-" هل معنى ذلك أن الإتحاد و الترقي هي فرقة سبئية؟" سأل خليل .

-" لا، بل حزب سياسي استطاع عدد من يهود الدونمة السيطرة عليه. وهذه هي الطريقة المفضلة لدى السبأيين، التغلل في في مختلف الجمعيات و الأحزاب ثم السيطرة عليها في الظل." أجاب عبد الله.

-" و ماذا عنك لماذا لم تشهر إسلامك إلى الآن؟"

-" و داوها بالتي كانت هي الداء" قال عبد الله مرددًا بيت الشعر المعروف. "خليل منذ قرون و العالم الإسلامي يتلقى الضربات بعضها من عدو ظاهر و البعض الآخر من عدو خفي لا نعرفه و لكنه يعرفنا جيدًا، لا نراه و لكنه يرانا جيدًا و هذا النوع من الأعداء هو الأخطر...لقد آن الأوان لكي نقلب الطاولة و نلعب نفس لعبتهم."

أدرك خليل قصد عبدالله الذي فضل أن يظل يعرف من قبل الجميع كيوري بك كوهين... فبذلك يتمكن من التغلغل في أوساط السبأيين و التي تربطهم علاقة قوية مع أسرته من يهود الكبالا.

-" تستطيع أن تعتبرني جاسوس العروة الوثقى في أكناف السبأيين." أضاف عبد الله.

فجأة تذكر خليل الموضوع الذي فاتح فيه الشيخ أبوبكر في بادئ اللقاء فأعاد تذكيره بما شاهده في الليلة السابقة ولكن هذه المرة على مسمع من عبدالله المؤمن الذي تذكر كيف استوقف المجسم الهرمي في قصر طلعت باشا خليل و التوتر الذي بان على طلعت باشا حيال ذلك.

-" على الرغم من أني رأيت ذلك المجسم الهرمي عدة مرات إلا أنه لم يخطر ببالي أن يكون وراءه شيء...أنا شخصيًا

لم أسمع بتلك الجماعة و لو أنك تقول أنهم كانو يرددون اسم حيرام أبيف." قال عبدالله ثم صمت قليلاً كأنه يتأمل ذلك الاسم. "حيرام أبيف هو اسم لشخصية يهودية يعتقد أنه هو الذي بنى هيكل سليمان."

-" قد تكون إذا اللغة الغريبة التي سمعها خليل هي العبرية." قال الشيخ أبوبكر موجها كلامه لعبد الله. "علينا أن نعرف سر تلك الجماعة و ما علاقتها بطلعت باشا... فأخشى أن يكون و راءها أمر خطير نجهله."

☆ ★ ☆

33

اتجه نعيم فور وصوله إلى المدينة المنورة إلى مقبرة البقيع ليلقي السلام على قبر أبيه و أمه. كم تمنى في هذه اللحظة لو أن قبر جده كان في نفس المكان ليلقي عليه هو أيضًا السلام. تذكر كيف كان أبوه يحدثه عن جده خليل و عن آخر مرة رآه فيها عندما كان طفلاً صغيرًا و قد رحل هو و أمه إلى الشام بسبب نقص المؤونة عن المدينة المنورة في الحرب العالمية الأولى عندما كان جيش الشريف حسين يحاول الإستيلاء على المدينة بمعونة الإنجليز...السفربرلك.. تلك الحقبة السوداء التي ظلت في ذاكرة أهالي المدينة المنورة حيث هجر الأهالي وظل فقط المقاتلون الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم. كان خليل الوزان أحد هؤلاء.

ظل رجال المدينة يقاومون ببسالة حتى استسلمت الدولة العثمانية في الحرب فاستسلمت المدينة بأمر من القائد العسكري التركي فخري باشا. انتهت الحرب و استولى جيش الشريف حسين على المدينة المنورة على أثر انهزام العثمانيين

و عاد الطفل عبد الله الوزان مع والدته ولكنه لم يجد أباه في الإنتظار. قيل له أنه قد قتل ولكن لم يعثر له عن جثة فلم يدفن مع باقي الشهداء في مقبرة البقيع.

أذن لصلاة الظهر فاتجه نعيم إلى داخل المسجد النبوي.

كان المسجد مزدحمًا كعادته فلم يستطع الوصول إلى الروضة الشريفة فصلى بجوار باب عمر بن الخطاب. انتبه نعيم بعد تأدية الصلاة إلى مكتبة المسجد النبوي التي لم تبعد عنه كثيرًا في داخل الحرم فخطر على باله ابن عم أبيه خالد الوزان المشرف على المكتبة. لم يلتق به نعيم منذ عدة سنوات فخطر على بال نعيم أنه ربما قد آن الأوان لكي يصل صلة الرحم.

سأل نعيم عند دخوله المكتبة عن خالد الوزان فقيل له أنه في الروضة الشريفة كعادته بعد صلاة الظهر يقرأ من ورده اليومي فاتجه نعيم إلى هناك.

على غير العادة خف الإزدحام بشكل ملحوظ في الجزء العثماني من المسجد النبوي حيث توجد الروضة الشريفة بجوار قبر الرسول (ﷺ). في أحد أركان الروضة كان يقرأ من سورة الإسراء رجل في العقد السادس ذو لحية بيضاء خفيفة تعرف عليه نعيم فور رؤيته فاتجه نحوه و بجواره جلس بعد أن صلى ركعتين. فرغ الرجل من قراءة ورده ثم نظر إلى نعيم و قد امتلأ قلبه بالسرور.

- " ما هذه الغيبة الطويلة يا رجل خلت أنك قد نسيتنا."

قال خالد مداعبًا نعيم.

- " معاذ الله يا عمي ولكني انشغلت في السنوات الأخيرة و لكنك كنت دائمًا على البال."

- " كان الله في العون، كما أشكره على الظروف التي جعلتك تزورنا بعد هذه الغيبة الطويلة... هل مررت على قبري والديك في البقيع؟"

- " نعم قبل الصلاة...كنت أتمنى لو كان قبر جدي خليل هناك أيضا."

- " رحمة الله عليهم جميعًا."

- " عمي، أردت أن أسألك بخصوص جدي خليل...هل مر عليك أنه كان في فترة من الفترات في مجلس المبعوثان."

- " نعم أذكر أني قرأت شيئًا كهذا في أحد مخطوطات العائلة التي نجت من التلف أثناء السفربرلك." قال خالد مستغربًا من سؤال نعيم و هو نفس السؤال الذي سُئله من قبل الرجلين اللذين مراه في نفس المكان منذ عدة شهور.

- " و هل أتلفت كميات كبيرة من مخطوطات العائلة في السفربرلك؟"

- " ليس فقط المخطوطات التي أتلفت بل ما أتلف كان أكثر من ذلك بكثير."

- " عفوًا، ماذا تقصد؟" سأل نعيم و قد بدأ الموضوع يثير اهتمامه بشكل أكبر.

- " لقد حدثني والدي رحمة الله عليه عن تلك الفترة وكان يملؤه الحزن لما جرى لجدك. فعندما دخل جيش الشريف حسين إلى المدينة كان أحد قادة الجيش يسأل عن جدك فقيل له أنه قد قتل في أحد المعارك. يقال أن الرجل سر لسماع هذا الخبر و أمر بإحراق منزله بكل محتوياته. الحق يقال أن باقي قادة الجيش غضبوا غضبًا شديدًا لما فعله ذلك الرجل و قيل أنه عوقب على فعلته هذه و لكن الرجل لم يأبه فكان لسبب ما قلبه مليئًا بالحقد تجاه جدك خليل. أخبرني أبي أنه سمعه يقول و هو يقف على أنقاض المنزل أن مهمته الآن قد انتهت. لم يفهم والدي قصده بهذه العبارة."

كانت دهشة نعيم كبيرة و هو يستمع لتلك القصة لأول مرة في حياته عن جده الذي كان كل يوم يكتشف أمورًا جديدة تخصه تربط أحداث حياته بما بدأ يكتشفه نعيم في الأيام الأخيرة. "هل يا ترى هذا ما كان يريدني الدكتور عبد القادر أن أعرفه ؟" تساءل نعيم.

- " و ماذا جرى لجدتي و لأبي عندما عادا من الشام؟"

- " مرّا بظروف قاسية خصوصًا بعد سماعهما خبر مقتل جدك خليل، و ما زاد الأمر سوءًا أن جميع ممتلكاتهم قد أتلفت في الحريق...عروض التجارة، صكوك الأراضي كلها أحرقت لم يتبق إلا بعض الأوراق."

- " الغريب أن أبي لم يحدثني عن هذه الفترة من حياته."

- " لا تلمه، فمن يود تذكر مثل هذه الذكريات الأليمة."

- " وددت أن أسألك عن أمر آخر...هل كان لجدي بستانًا حول مسجد قباء؟"

إبتسم خالد الوزان من سؤال نعيم ثم قال :

- " ألم يخبرك والدك رحمة الله عليه؟...هذا البستان هو الذي أنقذه و جدتك من الفقر و الحاجة...سبحان الله فقصة هذا البستان من أغرب القصص التي سمعتها من والدي رحمة الله عليه."

- " لا أذكر أنه قد أخبرني... ما قصة هذا البستان؟"

- " بعد فقدان جدتك و أبوك كل الثروة التي تركها جدك، تكفل أبي بإعالتهما ولكن المال لم يكن وفيرا. و بعد مضي سنة جاء إلى المدينة رجل من القدس كان اسمه مصطفى الحسيني

قال أن أباه أبوبكر الحسيني أخبره قبل وفاته أنه قد اشترى بستانًا حول مسجد قباء بالأجل منذ عدة سنوات وأن ظروف الحرب لم تسمح له بالمجيء لتسديد المبلغ. فجاء الإبن إلى المدينة المنورة لكي يسدد الدين عن أبيه الذي توفى."

تأثر نعيم من هذه القصة التي لم يسمعها من قبل واستغرب كيف أن أباه لم يقصها عليه.

-" و هل يسكن أحد البستان الآن؟"

-" نعم يسكنها الشيخ عمر مصطفى الحسيني...رجل فاضل التقيت به عدة مرات هنا في المسجد النبوي."

تيقن نعيم من خلال حديثه مع خالد الوزان أنه قد أحسن صنعًا عندما قرر تتبع الرؤيا التي رآها في القاهرة. فكما أوصلته إلى حل لغز الأرقام في رسالة الدكتور عبد القادر ها هي تقربه من فهم دور جده خليل في ما يحدث. "**من قال أن المشي وراء الأحلام لا يؤدي بصاحبه سوى إلى السراب؟**"

شعر نعيم لأول مرة منذ بدء الأحداث أنه اقترب من الحقيقة، إلى فهم ما جرى و فهم ما يجري ، إلى انكشاف حقيقة الماضي و حقيقة الحاضر و ربما حقيقة المستقبل. و لكن بقي لديه مشوار أخير لا تكتمل رحلة بحثه بدونه. فانطلق إلى بستان قباء.

☆ ★ ☆

34

نادى المنادي لصلاة العصر و كان نعيم قد وصل إلى منطقة قباء. ركن سيارته ثم اتجه مشيًا إلى داخل أول مسجد بناه الرسول (ﷺ) على مشارف المدينة بعدما أذن له الله بالهجرة من مكة. دخل المسجد الذي قد أعيد بناءه، و صلى في ساحته المظللة. تذكر أنه لم يأت إلى هنا منذ زمن. بل تذكر أن زيارته للمدينة المنورة كانت قليلة. لم تكن صلته بباقي أفراد أسرته قوية ، خصوصًا بعد وفاة أبيه و أمه. بل أنه لا يتذكر سوى بعض كبار العائلة كخالد الوزان و قد لا يتعرف على باقي أفراد الأسرة إذا ما قابلهم في مكان ما.

"من يدري فلعل أحدهم هنا في المسجد. لعله ذلك الرجل الذي بجواري أو ذلك الشيخ الذي قام لتوه و ألقى بالتحية علي كأنه يعرفني." أدرك نعيم كم أخذته مشاغل الحياة عن أبسط الأمور، أن يكون على علم بأسرته التي لم يكن يعلم عنها سوى القليل.

خرج نعيم من مسجد قباء وأخذ يسير باتجاه البساتين المحيطة به. قال له خالد أن البستان الذي يقصده يقع في الجهة الشمالية. " ستعرفه حين تراه فهو أكبر بستان حول المسجد ونخله يافع." ظل يمشي شمالاً حتى رأى مجموعة من البساتين ولكن كان بستان واحد يتميز عن الباقي بوفرة و يفاعة نخيله، بل لم تكن فيه نخلة واحدة ميتة. " لا شك أن هذا هو البستان المقصود." أخذ يحدث نفسه ثم دخل من البوابة التي لم تكن مغلقة و كأن صاحب البستان يقول لكل مار " على الرحب والسعة."

بدا البستان مألوفًا لنعيم و لو أنه لم يدخله من قبل ولكن مع كل خطوة كان يخطوها في البستان كان شعوره بالألفة يزيد حتى تحول الشعور إلى شبه يقين، فهو نفس البستان الذي رآه في حلمه! و ما زاد من دهشة نعيم أنه كلما توغل في البستان أخذ صوت خافت يعلو كان يقرأ من سورة البقرة. لم يكن الشبه بين الحلم و الواقع فقط في البستان و في سورة البقرة بل حتى الصوت الذي كان يرتل القرآن هو نفسه! ولكن الشخص الذي كان يقرأ من سورة البقرة في حلمه كان جده خليل فكيف يكون هو نفسه الذي يرتل الآن؟ أخذ نعيم يتشكك في حواسه إلى أن لمح رجلاً على مسافة مائة متر متربعًا تحت عريشة في أحد أركان

البستان كان يتلو من مصحف أمامه. أخذ يقترب من الرجل الذي بدت تتضح ملامحه لنعيم فقد كان رجلاً عجوزاً لا يشبه جده خليل الذي رآه في منامه و لكن كان وجه الرجل مألوفًا. لقد رآه نعيم من قبل، و فجأة تذكر أين رآه، فهو نفس ذلك الرجل الذي حياه في مسجد قباء عقب الصلاة.

واصل الرجل تلاوته إلى أن وصل إلى آية العروة الوثقى ثم توقف بعد تلاوة تلك الآية و كأنه قد انتبه لتوه من وجود نعيم.

- " عفوًا.. " قال نعيم بحرج شديد " أعتذر لك عن دخولي دون استئذان و لكني و جدت الباب مفتوحًا."

- " عم تعتذر؟ ألم تقل أن الباب كان مفتوحًا، فالأبواب لا تفتح إلا إذا كان المار مدعوًا إلى الدخول." قال الرجل بصوت بعث السكينة إلى قلب نعيم.

- " أبحث عن الشيخ عمر الحسيني، أهو أنت؟"

- " إن كنت تبحث عن عمر الحسيني فقد وجدته. ولكن هل هذا حقًا ما تبحث عنه؟"

ارتاب نعيم من سؤال الشيخ الذي لم يفهم مغزاه.

- " نعم..و ما الذي يجعلك تعتقد أني أبحث عن شيء آخر؟"

نظر الرجل إلى نعيم مبتسمًا ثم قال :

- " لأن الكثير من الناس لا يدركون عما يبحثون أو يبحثون عما لا يدركون." صمت الرجل قليلاً ثم أضاف. " هل حقًا تبحث عن عمر الحسيني أم أنك بحاجة إليه لكي يعينك للوصول إلى ما تبحث عنه؟"

تفاجأ نعيم من إجابة الرجل ففكر قليلاً فيما قاله.

- " بل أريد مساعدته للوصول إلى ما أبحث عنه."

- " فعما تبحث إذن؟"

- " أبحث عن فهم حقيقة ما جرى و ما يجري حولي، و قد قادني بحثي إلى هنا."

- " الذي قادك إلى هنا هو قدرك الذي لحق بك، أما الذي جرى و الذي يجري فهو الذي يهيئ لما سيجري."

- " المعذرة... ولكن حديثك كأنه ألغاز و أصدقك القول لقد سئمت الألغاز فيكفيني ما صادفت منها في الأيام السابقة."

- " **الألغاز هي ما يراه الإنسان دون أن يدرك معناه و حينما يدرك المعنى يختفي اللغز.** و أنت لقد بدأت تدرك الكثير و هذا ما أتى بك إلى هنا. لقد بدأت تدرك ما أدركه البعض من قبلك... لقد بدأت تدرك ما أدركه جدك خليل."

ذهل نعيم من ذكره لجده، فكيف عرف الرجل أنه حفيد خليل الوزان و يبحث عن أمور تتعلق به.

- " لا تستعجب." قال الرجل و كأنه أدرك سر تعجب نعيم. " فأنت كثير الشبه من صورة جدك رحمة الله عليه." قال الرجل جملته ثم أخرج من حقيبة كانت بجواره صورة تعرف نعيم على صاحبها.

- " هذه صورة جدي خليل، ولكن من أين لك بها؟"

- " لقد ورثتها عن أبي و الذي ورثها عن أبيه الشيخ أبوبكر الحسيني الذي كان صديقًا حميمًا لجدك. و لكن هذا ليس كل ما لدي مما يخص جدك." قال الشيخ عمر الحسيني جملته وهو ينظر إلى الحقيبة التي كانت بجواره.

- " ماذا لديك غير هذه الصورة؟" سأل نعيم و قد انتبه إلى الحقيبة.

- " لدي ما سيساعدك على الوصول إلى ما تبحث عنه. ولكن عليك أن تدرك أولاً أن الطريق إلى الحقيقة سيكون مليئًا بالمشقات لذلك ستحتاج إلى من يأخذ بأزرك و يساعدك على إتمام المشوار فالطريق ليس مقصودا لنفر واحد بل هو طريق الجماعة. هذا ما أدركه جدي و جدك و هذا ما ينبغي أن تدركه أنت." ما أن فرغ الشيخ من حديثه حتى قام و بيده الحقيبة فناولها إلى نعيم ثم أخذ يمشي نحو داره في آخر البستان.

فتح نعيم الحقيبة لينظر إلى ما بداخلها فوجد أوراقًا

قديمة كلها تخص جده خليل ولكن أكثر ما لفت انتباهه كان مجلدًا مكتوبًا بخط اليد على غلافه العنوان التالي:

خواطر و مشاهدات قادة العروة الوثقى

☆ ★ ☆

35

خاتمة البداية

خرج طلعت من شقته متجهًا إلى مكتبه بصحيفة الأحداث كعادته في مثل هذا الوقت. كان قد مضى عدة أيام منذ مغادرة نعيم القاهرة و لم يكن قد سمع منه إلى ذلك الوقت و لكنه كان يتتبع خيوط حادثة الدكتور عبد القادر بنوزّاني بطريقته الخاصة. دخل إلى سيارته عندما اهتز جواله منذرًا عن قدوم رسالة كان نصها:

لم أجد شخصًا أثق فيه مثلك طلعت. أنا في ورطة و أريد مساعدتك. لدي معلومات مهمة تركها لك موشي.

كان مرسل الرسالة دانيال زوجة موشي جولد.

☆ ★ ☆

27 إبريل 1909

نجح الإتحاد و الترقي في إصدار فتوى من مفتى الدولة بعزل السلطان عبد الحميد الثاني و تعيين أخيه محمد رشاد سلطانًا للبلاد بعد موافقة غالبية أعضاء مجلس المبعوثان. مع

هذه التطورات الخطيرة اجتمع قادة العروة الوثقى العشر في دار آل الحسيني في استانبول.

-" ما كنا نتوقع حدوثه قد حدث... يهود الدونمة لم يسقطوا فقط السلطان عبد الحميد و لكنهم أسقطوا الخلافة و ما هي إلا مسألة وقت حتى يتم الإعلان عن ذلك." قال الشيخ أبوبكر برباطة جأش حتى لا يدب اليأس في باقي القادة ثم أكمل. "علينا أن نتعامل مع هذا الواقع الجديد الذي توقعنا حدوثه، و تذكروا أننا نزرع بذور النهضة التي سوف يحصدها أحفادنا تمامًا مثلما زرع أسلافنا بذور نهضة صلاح الدين. الآن لم يعد لنا مكان في استانبول ويجب أن نتوزع حول بلاد الله على أن نلتقي في المدينة المنورة بعد كل حج."

بدأ القادة ينصرفون كل إلى وجهته المرسومة و بقي خليل الوزان و عبد الله المؤمن مع الشيخ أبوبكر الحسيني.

-" خليل، أمامك دورا كبيرا في المرحلة المقبلة، هل أنت مستعد؟"

-" بكل تأكيد."

-" وأنت يا عبد الله؟"

-" بفضل اكتشاف خليل في الصيف الماضي استطعنا أن نكتشف تغلغل السبأيين في الحركة الماسونية و هاقد انخرطت

معهم و بإذن الله سأصل أنا أو من سيخلفني إلى قمة الهرم حتى نستطيع كشف من هم قادة السبأيين."

-" هل حدد المجلس الأعلى ليهود الدونمة وجهتك المقبلة؟" سأل خليل.

-" نعم، يريدون زرعي في المغرب تحت مسمى رشيد بنوزّاني!"

☆ ★ ☆

أعلن عن موعد الصعود إلى طائرة الرحلة رقم 114 المتجهة إلى العاصمة الماليزية كوالا لمبور. دخل نعيم الوزان الطائرة و قبل إغلاق جواله أرسل رسالة إلى كل شخص كان مسجلاً لديه . كان نص الرسالة :

العالم يتغير . لم يعد كما كان. و لكن أكثر الناس لا يدركون.